خُلاصَةُ الشِّفا

بتَعْرِيْف حُقُوقِ المُصْطَفَى

نُسْخَةٌ مُختَصَرَةٌ مُخرَّجَة الأحَاديْثِ والآثار

اخْتَصَرَهُ

الشَّيخ صَالح بن عَبد الله بن عَبد الكَريم الدّرويش

مقدمة التحقيق

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد:

فقد أعلن كثير من أعداء هذا الدين- في هذا العصر- ما تحمله نفوسهم من حقد وبغض لرسول الله وخاتم النبيين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين؛ فنجدهم تارة يتهكمون، وتارة يلمزون، وأخرى يصرحون، وأخرى...وأخرى...

وقد تبعهم على ذلك كثير ممن استهوته الشياطين، ممن لم يجد لذلك سبيلًا، فاتخذ طريقًا آخر بالطعن في سادات المؤمنين، من صحابته الكرام وأهل بيته وزوجاته رضوان الله عليهم أجمعين.

وقد كان كتاب "الشفا في تعريف حقوق المصطفى" للقاضي عياض بن موسى بن عياض اليحصبي الأندلسي من أشهر ما ألف في بيان قدر ومنزلة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما اختصه الله سبحانه به من عظيم الخلال وجميل الصفات، وما ظهر عليه يديه من المعجزات والآيات. وما له صلوات ربي وسلامه عليه من الحقوق الواجبة على كل مسلم، مع بيان حكم سابئه وشانئه، والمتعدي على حرمته صلى الله عليه وسلم.

لكن نظرًا لكبر حجم الكتاب وتقاصر الهمم عن قراءته رأيت اختصار الكتاب، بحيث يسهل اقتناؤه، وتداوله، وقراءته.

وكان عملي في هذا الكتاب على النحو التالي:

1) اختصار المباحث الموجود في الكتاب؛ اكتفاء بإيراد النصوص التي تحقق الغرض، مع الإبقاء على نص المؤلف دون تدخل إلا في مواضع يسيرة، فيما يلزم من ربط العبارات ببعضها وما يقتضيه السياق، ولا يعدو ذلك الكلمة والكلمتين.
2) حذف الأحاديث غير الصحيحة، وما يتعلق بها من تعليقات.
3) حذف المباحث الكلامية، وما ليس له علاقة بصلب الموضوع. .
4) وضع عنوان لكل فصل من فصول الكتاب، وجعلها بين معقوفتين تنبيهًا للقارئ عليها.
5) ضبط بعض الكلمات بالشكل؛ ليسهل قراءتها وفهمها .
6) بيان معاني الكلمات الغريبة في الحاشية.
7) تخريج الأحاديث من أمهات الكتب الحديثية.
8) كتابة الآيات بالخط العثماني، مع تخريجها بالاسم ورقم السورة؛ ليسهل الرجوع إليها.

هذا ما يسر الله سبحانه القيام به؛ أداءً لبعض حق رسوله الكريم، ونصرة لجنابه الشريف، فأسأل الله سبحانه وتعالى أن ينفع به، وأن يجعله في ميزان حسناتي، إنه على كل شيء قدير.

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب الشفـاء

مقدمة الكتـاب

قال الفقيه القاضي الإمام الحافظ أبو الفضل عِيَاضُ بن موسى بن عياض اليحْصُبي رضي الله عنه:

الحمدُ لله المتفرِّد باسمه الأسمى، المختصّ بالملك الأعز الأحمى، الذي ليس دونه منتهى، ولا وراءه مرْمى، الظاهر لا تخيلًا ووَهْمًا، الباطن تقدّسًا لا عدمًا، وسع كل شيء رحمة وعلمًا، وأسبغ على أوليائه نعمًا عمّا، وبعث فيهم رسولًا من أنفسهم عُربًا وعجمًا، وأزكاهم متحدًا ومنمى، وأرجحهم عقلًا وحلمًا، وأوفرهم علمًا وفهمًا، وأقواهم يقينًا وعزمًا، وأشدهم بهم رأفةً ورحمى، وزكاه روحًا وجسمًا، وحاشاه عيبًا ووصمًا، وآتاه حكمةً وحكمًا، وفتح به أعينًا عميًا، وقلوبًا غلفًا، وآذانًا صمًا. فآمن به وعزره ونصره من جعل الله له في مغنم السعادة قسمًا، وكذب به وصدف عن آياته من كتب الله عليه الشقاء حتمًا، ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى، صلى الله عليه وسلم صلاةً تنمو وتنمى، وعلى آله وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فهذا مجموع يتضمن التعريف بقدر المصطفى عليه (الصلاة) والسلام، وما يجبُ له من توقير وإكرام، وما حكم من لم يوفّ واجب عظيم ذلك القدر، أو قصر في حق منصبه الجليل قلامة ظفر.

القِسْم الأوّل

في تعظيم العليّ الأعلى لقَدْر هذا النبيّ قولًا وفعلًا

لا خفاء على مَنْ مارس شَيْئًا من العِلْم، أَو خُصَّ بأدْنَى لمحة مِنْ فهْم، بتعظيمِ الله تعالى قَدْرَ نبينا عليه الصلاة والسلام، وخصوصِه إياه بفضائل ومحاسن ومناقب لا تنضبط لزمام، وتنويهه مِنْ عظِيم قَدْرِه بما تكل عنه الألسِنة والأقلام.

الباب الأول

في ثناء الله تعالى عليه، وإظهاره عظيم قَدْرِه لديه

اعلم أن في كتاب الله العزيز آياتٍ كثيرةً مفصحة بجميل ذِكْر المصطفى، وعَدِّ محَاسِنه، وتعظيم أمره، وتنويه قَدْره، اعتمدنا منها على ما ظهر معناه، وبانَ فَحْواه، وجمعنا ذلك في فصول:

الفَصْل الأوّل: فيما جاء من ذلك مَجيءَ المَدح والثناء وتَعداد المحاسن:

كقوله تعالى: ((لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)) [التوبة:128].

أعلَمَ الله تعالى المؤمنين، أو العرب، أو أهل مكة، أو جميع الناس -على اختلاف المفسرين: مَن المواجَهُ بهذا الخطاب- أنه بَعَث فيهم رسولًا من أنفُسهم يعرفونه، ويتحقَّقون مكانه، ويعلمون صدقَه وأمانته، فلا يتهمونه بالكذب وترْك النصيحة لهم؛ لكونه منهم، وأنه لم تكن في العرب قبيلة إلاّ ولها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولادة أو قَرابة، وهو عند ابن عباس وغيره معنى قوله تعالى: ((إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى)) [الشورى:42][(1)]، ثم وصفه بعدُ بأَوصاف حَمِيدة، وأثنى عليه بمَحَامد كثيرة، من حِرْصه على هدايتهم ورشدهم وإسلامهم، وشدة ما يُعنِّتُهم ويضُرُّ بهم في دُنياهم وأُخْراهم، وعزْتِه ورأفتِه ورحمته بمؤمنهم، وأَعطاهُ اسْمَيْنِ من أسمائه: رءوف، رَحيم.

وقوله تعالى: ((لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ)) [آل عمران:164].

وفي الآية الأخرى: ((هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ)) [الجمعة:2].

وقوله تعالى: ((كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ

---

(1) صحيح البخاري من طريق طاوس عن ابن عباس قال: [[إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة فقال: إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة]].

تَكُونُوا تَعْلَمُونَ)) [البقرة:151].

قوله تعالى: ((وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)) [الأنبياء:107].

قال أبو بكر بن طاهر: (زَيَّن الله تعالى محمدًا صلى الله عليه وسلم بزينة الرحمة؛ فكان رحمة، وجميعُ شمائله وصفاتِه رحمةٌ على الخَلْقِ؛ فمن أَصابه شيء من رحمته فهو الناجي في الدَّارَيْن من كلِّ مكروه، والواصل فيهما إلى كل محبوب، ألا ترى أنّ الله يقول: ((وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)) [الأنبياء:107]، فكانت حياتُه رحمةً، ومماتُه رحمة، كما قال عليه الصلاة والسلام: {إذا أَراد اللهُ رحمةً بأُمّةٍ قبَض نبيَّها قَبْلها، فجعله لها فَرَطًا وسَلَفًا})[1].

وقال تعالى: ((يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا)) [الأحزاب:45-46].

ومن هذا قولُه تعالى: ((أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ * فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ)) [الشرح:1-8].

شرح: وسّع، والمراد بالصدْرِ هنا: القَلْب، قال ابنُ عباس: (شرحه بالإسلام)، وقال الحسن: (مَلأه حُكْمًا وعِلْمًا).

((وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ))

قيل: ما سلف من ذَنْبِك- يعني: قبل النبوَّة، وقيل: أراد ثقل أيام الجاهلية.

((وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)) قال يحيى بن آدم: (بالنُّبوة)، وقيل: إذا ذُكرتُ ذُكِرتَ معي.

قال القاضي أبو الفَضْل: هذا تقرير مِنَ الله جلَّ اسْمُه لنبيِّه صلى الله عليه وسلم على عَظِيم نعمه لديه، وشَرِيف مَنْزِلَته عِنْدَه، وِكرامتِه عليه، بأَنْ شرحَ قَلْبه للإيمان وِالهداية، ووسَّعه لِوَعي العِلْم، وَحملِ الحِكْمة، ورَفَعَ عنه ثِقل أمورِ الجاهلية عليه، وبغَّضهُ لِسِيَرِها، وما كانت عليه، بَظهور دِينِهِ على الدِّين كُله، وحَطَّ عنه عُهدةَ أَعباءِ الرسالة والنبوَّة لتبليغه للناس ما نُزِّل إليهم، وتَنويهه بعظيم مَكانه، وجَليل رُتْبَته، ورفعه ذِكْرَه، وقِرَانِه مع اسمِهِ [اسْمَه].

قال قَتَادة: رفَع اللهّ ذِكْرَهُ في الدُّنيا والآخِرة، فليس خطيبٌ ولا متشهِّد ولا صاحبُ صلاةٍ إِلَّا يقولُ: أشهدُ أنْ لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسولُ الله[2].

وَمنْ ذِكْرِه معه تعالى أن قَرَن طاعتَه بطاعته، فقال تعالى: ((أَطِيعُوا اللهَّ وَالرَّسُولَ))، وقال: ((آمِنُوا بِاللهَّ وَرَسُولِهِ))، فجمع بينهما بواو العطف المشركة.

وقال تعالى: ((قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَّ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُّ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُّ غَفُورٌ رَحِيمٌ * قُلْ أَطِيعُوا اللهَّ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَّ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ)) [آل عمران:32].

الفَصل الثّاني: في وصْفِه تعالى له بالشهادةِ وما يتعلق بها من الثناء والكرامة:

---

(1) صحيح مسلم (2288).

(2) تفسير ابن جرير (30/ 151).

قال الله تعالى: ((يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا)) [الأحزاب:45-46].

جمع الله تعالى في هذه الآية ضُروبًا من رُتَب الأثرَة، وجملة أوصافٍ من المِدحة، فجعله شاهِدًا على أمته لنَفْسِه بإبلاغِهم الرّسالةَ؛ وهي من خصائصه صلى الله عليه وسلم، ومُبَشِّرًا لأهْلِ طاعتِه، ونَذِيرًا لأهل معصيته، وداعِيًا إلى توحيده وعبادته، وسِرَاجًا مُنِيراً يُهْتَدى به لِلْحقّ.

عن عطاء بن يَسار، قال: لَقِيتُ عَبْدَ الله بن عمرو بن العاص، فقلتُ: (أخْبِرْني عن صِفَة رسُول اللهّ صلى الله عليه وسلم، قال: أَجَل، والله! إنه لموصوفٌ في التَّوْراة ببعض صفتِه في القرآن: ((يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا)) [الأحزاب:45]، وحِرْزًا للأُمِّيِّين، أَنْتَ عَبْدِي ورسولي، سمَّيتُك المتوكِّلَ؛ ليس بفَظّ ولا غليظ ولا صَخّاب في الأسواق، ولا يدفَعُ بالسيئةِ السيئةَ، ولكن يَعْفُو ويَغْفر، ولن يَقْبِضَهُ اللهُ حتى يُقيمَ بهِ المِلَّةَ العَوجَاء، بأن يقولوا: لا إلهَ إلّا اللهّ، ويَفْتَحَ به أَعيُنًا عمْيًا، وآذانًا صمًّا، وقلوبًا غُلْفًا)[1].

وقال تعالى: ((الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِّ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِّ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِّ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)) [الأعراف:157-158].

وقال تعالى: ((فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِّ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِّ إِنَّ اللهَّ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)) [آل عمران:159].

وقال تعالى: ((وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا)) [البقرة:143].

قال أبو الحسَن القابسي: أَبانَ الله تعالى فَضلَ نبينا صلى الله عليه وسلم، وفَضلَ أمتِه بهذه الآية، وفي قوله في الآية الأخرى: ((وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ)) [الحج:78].

وكذلك قوله: ((فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيدًا)) [النساء:41].

قوله تعالى: (وسطًا): أي: عدلًا خيارًا.

ومعنى هذه الآية: وكما هدَيْنَاكُم فكذَلكَ خصَصْنَاكم وفضَّلْناكُم بأَنْ جعَلْناكم أمةً خِيارًا عدولًا، لتشهدوا للأنبياء عليهم السلام على أُمَمِهم، ويشهدَ لكم الرسولُ بالصِّدْق.

وقيلْ: إنّ الله جل جلالُه إذا سأل الأنبياءَ: هل بلَّغْتُم؟ فيقولون: نَعَمْ. فتقول أُمَمُهم: ما جاءنا مِنْ بشير ولا نذيرٍ!

(1) صحيح البخاري (2125)(4838).

فتشهد أمّةُ محمّدٍ صلى الله عليه وسلم للأنبياء؛ ويُزَكِّيهم النبيُّ صلى الله عليه وسلم[1].

وقيل: معنى الآية: إنكم حُجّة على كلّ مَنْ خالفكم، والرسولُ حجّةٌ عليكم.

الفصل الثالث: فيما ورد من خطابه إياه مورد الملاطفة والمبرّة:

من ذلك قوله تعالى: ((عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ)) [التوبة:43].

قال القاضي أبو الفضل: يجب على المسلم أن يتأدب بأدب القرآن في قوله وفعله، فهو عنصر[2] المعارف الحقيقية، وروضة الآداب الدينية والدنيوية، وليتأمل هذه الملاطفة العجيبة في السؤال من رب الأرباب، المنعم على الكل، المستغني عن الجميع، ويستثر ما فيها من الفوائد، وكيف ابتدأ بالإكرام قبل العتب، وأنّس بالعفو قبل ذكر الذنب إن كان ثمَّ ذنب.

وقال تعالى: ((وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا)) [الإسراء:74].

عاتب الله تعالى الأنبياء عليهم السلام بعد الزلاّت، وعاتب نبينا عليه السلام قبل وقوعه، ليكون بذلك أشدّ انتهاءً ومحافظة لشرائطِ المحبة، وهذه غاية العناية.

ثم انظر كيف بدأ بثباتِه وسلامته قبل ذِكْر ما عَتَبه عليه وخيف أن يركن إليه، ففي أثناء عتبه براءته، وفي طيّ تخويفه تأمينه وكرامته.

ومما ذكر من خصائصه، وبِرّ الله تعالى به، أن الله تعالى خاطب جميع الأنبياء بأسمائهم، فقال تعالى: يا آدم، يا نوح، يا موسى، يا داود، يا عيسي، يا زكريا، يا يحيى، ولم يخاطب هو إلاّ بـ: يا أيها الرسول، يا أيها النبي، يا أيها المزمل، يا أيها المدثر.

الفصل الرابع: في قسمه تعالى بعظيم قدرِه:

قال الله تعالى: ((لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)) [الحجر:72].

اتفق أهل التفسير في هذا أنه قسم من الله جل جلاله بمدة حياة محمد صلى الله عليه وسلم، وأصله ضم العين، من العُمرِ، ولكنها فُتحت لكثرة الاستعمال، ومعناه: وبقائك يا محمد، وقيل: وعَيشِك، وقيل: وحياتِك.

وهذه نهاية التعظيم، وغاية البر والتشريف، قال ابن عباس رضي الله عنهما: (ما خلق الله تعالى، وما ذرأ، وما برأ نفسًا أكرم عليه من محمد صلى الله عليه وسلم، وما سمعت الله تعالى أقسم بحياة أحد غيره)[3].

وقال تعالى: ((لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ)) [البلد:1-2].

قيل: (لا) زائدة، أي: أقسم به وأنت به -يا محمد- حلال، أو حل لك ما فعلت فيه على التفسيرين، والمراد بالبلد: مكة.

---

(1) صحيح البخاري (3339)(4487)(7349).

(2) العنصر: الأصل.

(3) دلائل النبوة (5/ 488).

الفصل الخامس: في قسمه تعالى له، ليحقق مكانته عنده:

قال جل اسمه: ((وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى * وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى * أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى * فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ)) [الضحى:1-11].

هذه السورة تضمنت من كرامة الله تعالى له، وتنويهه به وتعظيمه إياه ستة وجوه:

الأول: القسم له عما أخبره به من حاله بقوله تعالى: ((وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى)) [الضحى:1-2]. أي: ورب الضحى، وهذا من أعظم درجات المبرّة.

الثاني: بيان مكانته عنده وحُظوته لديه بقوله تعالى: ((مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى)) [الضحى:3] ، أي: ما تركك وما أبغضك، وقيل: ما أهملك بعد أن اصطفاك.

الثالث: قوله تعالى. ((وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى)) [الضحى:4]، قال ابن إسحاق: (أي: ما لك في مرجعك عند الله أعظم مما أعطاك من كرامة الدنيا).

الرابع: قوله تعالى: ((وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى)) [الضحى:5].

وهذه آية جامعة لوجوه الكرامة، وأنواع السعادة، وشتات الإنعام في الدارين، والزيادة.

قال ابن إسحاق: يرضيه بالفلج في الدنيا، والثواب في الآخرة، وقيل: يعطيه الحوض والشفاعة.

وروي عن بعض آل النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ليس آية في القران أرجى منها، ولا يرضى رسول صلى الله عليه وسلم أن يدخل أحد من أمته النار.

الخامس: ما عدده تعالى عليه من نعمه، وقرره من آلائه قبله في بقية السورة، من هدايته إلى ما هداه له، أو هداية الناس به على اختلاف التفاسير، ولا مال له، فأغناه بما آتاه، أو بما جعله في قلبه من القناعة والغنى، ويتيمًا فحدب عليه عمه وآواه إليه.

السادس: أمره بإظهار نعمته عليه وشكر ما شرفه بنشره وإشادة ذِكْره بقوله تعالى: ((وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ)) [الضحى:11]، فإن من شكر النعمة الحديث بها، وهذا خاص له، عام لأمته.

وقال تعالى: ((وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى)) [النجم:1-18].

اشتملت هذه الآيات على إعلام الله تعالى بتزكية جملته عليه السلام، وعصمتها من الآفات في هذا المسرى، فزكى فؤاده ولسانه وجوارحه؛ فزكى قلبه بقوله: ((مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى)) [النجم:11]، ولسانه بقوله: ((وَمَا يَنْطِقُ عَنِ

الْهَوَى)) [النجم:3]، وبصره بقوله: ((مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى)) [النجم:17].

وقال تعالى: ((فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ * وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ * وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ * وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ * وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ)) [التكوير:15-25]. ((لا أقسم)): أي أقسم. ((إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ))؛ أي كريم عند مرسله. ((ذِي قُوَّةٍ)) على تبليغ ما حمله من الوحي، ((مكين)): أي متمكن المنزلة من ربه، رفيع المحل عنده، ((مُطاعٍ ثمّ)): أي في لسماء. ((أمين)) على الوحي، وهو جبريل عليه السلام.

((وَلَقَدْ رَآهُ)) يعني محمدًا، رأى جبريل في صورته. ((وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ)) [التكوير:24]، أي: بمتهم. ومن قرأها بالضاد فمعناه: ما هو ببخيل بالدعاء به، والتذكير بحكمه وبعلمه.

وقال تعالى: ((ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)) [القلم:1-4].

أقسم الله تعالى بما أقسم به من عظيم قسَمِه على تنزيه المصطفى بما غَمَصَتْه[1] الكفرة به، وتكذيبهم له، وأنّسه، وبسط أمَله بقوله: ((مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ)) [القلم:2].

وهذه نهاية المبرّة في المخاطبة، وأعلى درجات الآداب في المحاورة؛ ثم أعلمه بما له عنده من نعيم دائم، وثواب غير منقطع، لا يأخذه عد، ولا يمتن به عليه، فقال تعالى: ((وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ)) [القلم:3].

ثم أثنى عليه بما منحه من هباته، وهداه إليه، وأكد ذلك تتميمًا للتمجيد، بحرفي التأكيد، فقال تعالى: ((وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)) [القلم:4].

الفصل السادس: فيما ورد من قوله تعالى في جهته عليه السلام موردَ الشفقة والإكرام:

قال تعالى: ((طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى)) [طه:1-2].

قيل: نزلت هذه الآية فيما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتكلفه من السهر والتعب وقيام الليل.

ولا خفاء بما في هذا من الإكرام وحسن المعاملة.

ومثل هذا من نمط الشفقة والمبرة قوله تعالى: ((فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا)) [الكهف:6]؛ أي: قاتل نفسك لذلك غضبًا أو غيظًا، أو جزعًا.

ومثله أيضًا قوله تعالى: ((لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)) [الشعراء:3]؛ ثم قال: ((إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ)) [الشعراء:4].

ومن هذا الباب قولُه تعالى: ((فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ * الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ

---

(1) الغمص: احتقار الناس.

اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ)) [الحجر:94-97].

وقوله: ((وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)) [(الأنعام:10)، (الأنبياء:41].

قال مكيّ: (سلاه بما ذكر، وهون عليه ما يلقى من المشركين، وأعلمه أن من تمادى على ذلك يحل به ما حل بمن قبله).

ومثل هذه التسلية قوله تعالى: ((وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ)) [فاطر:4].

ومن هذا قوله تعالى: ((كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ)) [الذاريات:52].

عزاه الله تعالى بما أخبر به عن الأمم السالفة ومقالها لأنبيائهم قبله، ومحنتهم بهم، وسلاه بذلك من محنته بمثله من كفار مكة، وأنه ليس أوّل من لقي ذلك، ثم طيب نفسه، وأبان عذره بقوله تعالى: ((فَتَوَلَّ عَنْهُمْ)) [الذاريات:54]، أي: أعرض عنهم؛ ((فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ)) [الذاريات:54]، أي: في أداء ما بلغت وإبلاغ ما حملت.

ومثله قوله تعالى: ((وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)) [الطور:48]، أي: اصبرْ على أذاهم فإنك بحيث نراك ونحفظك، فسلاه الله تعالى بهذا في آي كثيرة من هذا المعنى.

الفصل السابع: فيما أخبر الله تعالى به في كتابه العزيز من عظيم قدْره، وشريف منزلته على الأنبياء، وحظوة رتبته:

قال تعالى: ((وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ)) [آل عمران:81].

قال أبو الحسن القابسيّ: (اختصّ الله تعالى محمدًا صلى الله عليه وسلم بفضل لم يُؤته غيره، وهو ما ذكره في هذه الآية، قال المفسرون: أخذ الله الميثاق بالوحي، فلم يبعث نبيًا إلا ذكر له محمدًا ونعته، وأخذ عليه ميثاقه إن أدركه ليؤمنن به، وقيل: أن يبينه لقومه، ويأخذ ميثاقهم أن يبينوه لمن بعدهم).

وقوله: ((ثم جاءكم)): الخطاب لأهل الكتاب المعاصرين لمحمد صلى الله عليه وسلم.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (لم يبعث الله نبيًا من آدم فمن بعْده إلا أخذ عليه العهد في محمد صلى الله عليه وسلم: لئن بعث وهو حيٌّ ليؤمنن به ولينصرنه، ويأخذ العهد بذلك على قومه)[1].

الفصل الثامن: في إعلام الله تعالى خلقه بصلواته عليه، وولايته له، ورفعه العذاب بسببه:

قال الله تعالى: ((وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)) [الأنفال:33].

وهذا مثل قوله: ((لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)) [الفتح:25].

وقوله تعالى: ((وَلَوْلا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ

(1) تفسير ابن جرير (3/ 236).

اللهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ)) [الفتح:25]: فلما هاجر المؤمنون نزلت: ((وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ)) [الأنفال:34].

وهذا من أبين ما يظهر مكانته صلى الله عليه وسلم، ودرأ به العذاب عن أهل مكة بسبب كونه فيهم، ثم كون أصحابه بعده بين أظهرهم، فلما خلت مكة منهم عذبهم الله بتسليط المؤمنين عليهم، وغلبتهم إياهم، وحكم فيهم سيوفهم، وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم.

وقال الله تعالى: ((إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ)) [الأحزاب:56].

أبانَ الله تعالى فضلَ نبيه صلى الله عليه وسلم بصلواته عليه، ثم بصلاةِ ملائكته، وأمَر عباده بالصلاة والتسليم عليه.

والصلاة من الملائكة استغفار، ومنا له دعاء، ومن الله عز وجل رحمة.

وقال تعالى: ((وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ)) [التحريم:4]، مولاه أي: ولّيه، وصالح المؤمنين: قيل: الأنبياء، وقيل: الملائكة، وقيل: أبو بكر، وعُمر، وقيل: المؤمنون على ظاهِره.

الفصل التاسع: فيما تضمنته سورة الفتح من كراماته صلى الله عليه وسلم:

قال الله تعالى: ((إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَيَنْصُرَكَ اللهُ نَصْرًا عَزِيزًا * هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللهِ فَوْزًا عَظِيمًا * وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا * وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا * إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)) [الفتح:1-10].

تضمّنت هذه الآيات من فضله والثناء عليه، وكريم منزلته عند الله تعالى، ونعمته لديه، ما يَقْصُر الوصف عن الانتهاء إليه، فابتدأ جلّ جلاله بإعلامه بما قضاه له من القضاء البين بظهوره، وغلبته على عدوه، وعُلو كلمته وشريعته، وأنه مغفور له، غيرُ مؤاخذ بما كان وما يكون.

قال بعضهم: أراد غُفران ما وقع وما لم يقع، أي: إنك مغفور لك.

ثم قال: ((وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ)) [الفتح:2]: قيل: بخضوع من تكبر عليك، وقيل: بفتح مكة والطائف، وقيل: يرفع ذكرك في الدنيا، وينصرك ويغفر لك؛ فأعلمه بتمام نعمته عليه بخضوع متكّبري عدوّه له، وفتح أهم البلاد عليه، وأحبها له، ورفع ذكره، وهدايته الصراط المستقيم المبلغ الجنة والسعادة، ونصره النصرَ العزيز، ومِنتِه على أمته المؤمنين بالسكينة والطمأنينة التي جعلها في قلوبهم، وبِشارتهم بما لهم بَعْدُ، وفوزهم العظيم، والعفُو عنهم، والسترِ لذنوبهم، وهلاك عدوّه

في الدنيا والآخرة، ولعنِهم وبعدهم من رحمته، وسوء مُنقلبهم.

ثم قال: ((إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا)) [الفتح:8-9] فعد محاسنه وخصائصه؛ من شهادته على أمته لنفسه، بتبليغه الرسالة لهم، ومنذرًا عدوّه بالعذاب، وقيل: محذّرًا من الضلالات ليؤمن بالله، ثم به صلى الله عليه وسلم من سبقت له من الله الحُسْنى.

(ويعزروه) أي: يجلّونه، وقيل: ينصرونه، وقيل: يبالغون في تعظيمه.

(ويوقروه) أي: يعظمونه، والأظهرُ أن هذا في حق محمد صلى الله عليه وسلم، ثم قال: ((وتسبحوه)) وهذا راجع إلى الله تعالى.

الفصل العاشر: فيما أظهره الله تعالى في كتابه العزيز من كرامته عليه ومكانته عنده:

من ذلك عصمته من الناس بقوله تعالى: ((وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)) [المائدة:67]، وقوله تعالى: ((وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)) [الأنفال:30].

وقوله: ((إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)) [التوبة:40].

ومنه قوله تعالى: ((إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ)) [الكوثر:1-3].

أعلمه اللهُ تعالى بما أعطاه والكوثر: نهر في الجنة، وقيل: الخير الكثير.

ثم أجاب عنه عدوّه، ورد عليه قوله، فقال تعالى: ((إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ)) أي: عدوك ومبغضك، والأبتر: الحقير الذليل، أو المفرد الوحيد، أو الذي لا خير فيه.

وقال: ((وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)) [النحل:44].

وقال: ((وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا)) [سبأ:28].

وقال تعالى: ((قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)) [الأعراف:158].

فهذه من خصائصه.

وقال تعالى: ((وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ)) [إبراهيم:4]، فخصّهم بقومهم، وبعث محمدًا صلى الله عليه وسلم إلى الخلق كافة، كما قال عليه السلام: {بُعِثْتُ إلى الأحمر والأسود}[1].

وقال تعالى: ((النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ)) [الأحزاب:6]. قال أهل التفسير: أولى بالمؤمنين

---

(1) صحيح مسلم (521).

من أنفسهم: أي: ما أنفذه فيهم من أمر فهو ماضٍ عليهم كما يمضي حكم السيد على عبده.

وقيل: اتباع أمره أولى من اتباع رأْي النفْس.

وأزواجه أمهاتهم، أي: هنّ في الحرمة كالأمهات، حرم نكاحهن عليهم بعده، تكرمة له وخصوصية؛ ولأنهن له أزواج في الآخرة.

وقال الله تعالى: ((وَأَنزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا)) [النساء:113].

الباب الثاني

في تكميل الله تعالى له المحاسن خَلْقًا وخُلُقًا،

وقِرَانه جميع الفضائل الدينية والدنيوية فيه نَسقًا

خصالُ الجلال والكمال في البشر نوعان: ضروري دنيوي اقتضته الجبلة، وضرورةُ الحياة الدنيا، ومكتسب ديني؛ وهو ما يحمد فاعله، ويقرِّب إلى الله تعالى زلفى.

ثم هي على فنّيْن أيضًا: منها ما يتخلص لأحد الوصفين، ومنها ما يتمازج ويتداخل.

فأما الضروري المحض فما ليس للمرء فيه اختيار ولا اكتساب، مثل ما كان في جبلته من كمال خِلْقته، وجمال صورته، وقوة عقله، وصحة فهمه، وفصاحة لسانه، وقوة حواسه وأعضائه، واعتدال حركاته، وشرف نسبه، وعزة قومه، وكرم أرضه، ويلحق به ما تدعوه ضرورة حياته إليه، من غذائه ونومه، وملبسه ومسكنه، ومنكحه، وماله وجاهه.

وقد تلحق هذه الخصال الآخرة بالأخروية إذا قصد بها التقوى ومعُونة البدن على سلوك طريقها، وكانت على حدود الضرورة، وقوانين الشريعة.

وأما المكتسبة الأخروية فسائر الأخلاق العلية، والآداب الشرعية: من الدين، والعلم، والحلم، والصبر، والشكر، والمروءة، والزهد، والتواضع، والعفو، والعفة، والجُود، والشجاعة، والحياء، والصمت، والتؤدة، والوقار، والرحمة، وحسن الأدب والمعاشرة، وأخواتها، وهي التي جماعُها حسن الخُلُق.

وقد يكون من هذه الأخلاق ما هو في الغريزة، وأصل الجبلّة لبعض الناس، وبعضهم لا تكون فيه، فيكتسبها، ولكنه لا بد أن يكون فيه من أصولها في أصل الجبلة شعبة كما سنبيّنه إن شاء الله.

وتكون هذه الأخلاق دُنيوية إذا لم يرد بها وجه الله والدار الآخرة، ولكنها كلها محاسن وفضائل باتفاق أصحابِ العقول السليمة، وإن اختلفوا في موجب حسنها وتفضيلها.

فصـــل: [محمد صلى الله عليه وسلم جمع خصال الكمال ونعوت الجلال]

إذا كانت خصالُ الكمال والجمال ما ذكرناه، ووجدنا الواحد منا يَشْرُف بواحدة منها أو باثنتين إن اتفقت له من نسب

أو جمال، أو قوة، أو علم، أو حلم، أو شجاعة، أو سماحة، فيعظم قدره، ويُضرَب باسمه الأمثال، ويتقرّر له بالوصف بذلك في القلوب إثرة وعظمة، فما ظنك بعظيم قدر من اجتمعت فيه كل هذه الخصال إلى ما لا يأخذه عد! ولا يعبرُ عنه مقال، ولا ينال بكسب ولا حيلة إلا بتخصيص الكبير المتعال، منْ فضيلة النبوة والرسالة، والخُلة والمحبة، والاصطفاء، والإسراء، والقرب والدنو، والوحي، والشفاعة والوسيلة، والفضيلة، والدرجة الرفيعة، والمقام المحمود، والبراق، والمعراج، والبعث إلى الأحمر والأسود، والصلاة بالأنبياء، والشهادة بين الأنبياء والأمم، وسيادةِ ولد آدم ، ولواء الحمْد، والبشارة، والنذارة، والأمانة، والهداية، والرحمة للعالمين، وإعطاء الرضا، والكوْثر، وسماع القول، وإتمام النعمة والعفو عما تقدم وتأخر، وشرح الصدر، ووضع الوِزْر، ورفع الذِّكْر، وعزّة النصر، ونزول السكينة، والتأييد بالملائكة، وإيتاء الكتاب والحكمة، والسبع المثاني، والقرآن العظيم، وتزكية الأمة، والدعاء إلى الله، وصلاة الله تعالى والملائكة، والحكم بين الناس بما أراهُ الله، ووضع الإصْرِ والأغلال عنهم، وإجابة دعوته، وتكليم الجمادات والعجم، ونبْع الماء من بين أصابعه، وتكثير القليل، وانشقاق القمر، والنصر بالرعب، والاطلاع على الغيب، وظل الغمام، وتسبيح الحصا، وإبراء الآلام، والعصمة من الناس، إلى ما أعد له في الدار الآخرة من منازل الكرامة، ودرجات القدس، ومراتب السعادة، والحُسنى والزيادة التي تقف دونها العقول.

فصـــل: [أوصاف رسول الله صلى الله عليه وسلم الخَلْقية]

اعلم -نوّر الله قلبي وقلبك، وضاعف في هذا النبي الكريم حبي وحبك- أنك إذا نظرت إلى خصال الكمال التي هي غير مكتسبة، وفي جبلّة الخِلْقة، وجدته حائزًا لجميعها، مُحيطًا بشتات محاسنها دون خلاف بين نقلة الأخبار لذلك.

أما الصورة وجمالها، وتناسُب أعضائه في حسنها، فقد جاءت الآثار الصحيحة والمشهورة الكثيرة بأنه صلى الله عليه وسلم كان أزْهر اللون[1]، أدعج[2]، أنجل[3]، أشكل، أهدب الأشفار[4]، أبلج[5]، أزجّ[6]، أقنى[7]، أفلج[8]، مدوّر الوجه، واسع الجبين، كث اللحية تملأ صدْره، سواء البطن والصدر، واسع الصدر، عظيم المنكبين، ضخم العِظام، عبْل العضدين[9] والذراعين والأسافل[10]، رحْب الكفين[1] والقدمين، سائل الأطراف[2]، أنْور المتجرد[3]، دقيق المسْرُبة[4]،

---

(1) الأزهر: كل أبيض صافٍ مشرق مضيء.

(2) أدعج: دعجت العين دعجًا: اشتد سواد سوادها وبياض بياضها واتسعت، فهي دعجاء، ويقال: دعج الرجل فهو أدعج.

(3) أنجل: نجلت عينه نجلًا: اتسعت عينه وحسنت، والأشكل: حُمرة في بياض العين.

(4) الأهدب: ما طال هُدب عينيه، والهدب: شعر أشفار العين.

(5) الأبلج: من تباعد ما بين حاجبيه.

(6) أزج: مقوس الحاجب مع طول وامتداد.

(7) أقنى: محدوب الأنف.

(8) الفلج: تباعد ما بين الثنايا.

(9) عبْل العضدين: الضخم.

(10) الأسافل: الفخذين والساقين.

ليس بالطويل البائن، ولا بالقصير المتردّد، مع ذلك فلم يكن يُماشيه أحد يُنسب إلى الطول إلا طالهُ[5] صلى الله عليه وسلم، رَجِلَ الشعر[6]، إذا افْترّ ضاحكًا[7] افترّ عن مثل سنَا البرق، وعن مثل حبّ الغمام[8]، إذا تكلّم رُئي كالنور يخرجُ من ثناياه[9]، أحسن الناس عُنُقًا، ليس بمُطهّم[10] ولا مُكلثم[11]، متماسِك البدَن، ضرْب اللّحْم.

قال البراء بن عازب: [[ما رأيت من ذي لِمّة في حُلّة حمراء أحسن من رسولُ صلى الله عليه وسلم]][12].

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: [[ما رأيت شيئًا أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كأن الشمس تجري في وجهه، وإذا ضحك يتلألأ في الجدُر]][13].

وقال رجل لجابر بن سُمرة: كان وجْهُه صلى الله عليه وسلم مثل السيف؟ فقال: [[لا. بل مثل الشمس والقمر، وكان مستديرًا]][14].

وقالت أُم معبد- في بعض ما وصفته به-: [[أجمل الناس من بعيد، وأحْلاه وأحسنه من قريب]][15].

وفي حديث ابن أبي هالة: [[يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر]][16].

وقال علي رضي الله عنه في آخر وصفه له: [[من رآه بدِيهَةً هابه، ومن خالطه معرفةً أحبّه، يقول ناعِتُه: لم أرَ قبله ولا بعده مثْله صلى الله عليه وسلم]][17].

فصــل: [نظافة جسمه صلى الله عليه وسلم وطيب رائحته]

وأما نظافة جسمه، وطيب ريحه وعرقه، ونزاهَتِهِ عن الأقذار وعورات الجسد، فكان قد خصه الله في ذلك بخصائص

---

(1) رحْب الكفين: واسعها.

(2) سائل الأطراف: طويل الأصابع.

(3) أنور المتجرد: ما تجرد عن خلع الثياب من البدن.

(4) المسربة: خيط الشعر الذي بين الصدر والسرة.

(5) دلائل النبوة (1/ 298).

(6) الشعر الرجل: إذا لم يكن شديد الجعود ولا سبطًا.

(7) إذا افتر ضاحكًا: أي إذا بدا أسنانه حالة أنه ضاحك.

(8) حب الغمام: هو البرد، وهو الماء الجامد الذي ينزل من السحاب قطعًا صغارًا.

(9) سنن الدارمي (1/ 30).

(10) الطهمة: لون كالسخمة، وهي أن تجاوز سُمرته إلى السواد.

(11) الكلثوم: الممتلئ لحم الخدين والوجه.

(12) صحيح البخاري (3549)، صحيح مسلم (2337).

(13) مسند أحمد (2/ 350-380) (8588) (8930)، سنن الترمذي (3648)، صحيح ابن حبان (6309).

(14) صحيح مسلم (2344).

(15) الدلائل (1/ 276- 279).

(16) دلائل النبوة للبيهقي (1/ 285-292).

(17) سنن الترمذي (3638)، وقال الترمذي: (هذا حديث حسن غريب، ليس إسناده بمتصل).

لم توجد في غيره، ثم تمّمها بنظافة الشرْع، وخصال الفطرة العشر[1].

روى مسلم عن أنس قال: [[ما شمِمْتُ عنبرًا قط، ولا مِسْكًا، ولا شيئًا أطيب من ريح رسول الله صلى الله عليه وسلم]][2].

وعن جابر بن سمرة: [[أنه صلى الله عليه وسلم مسح خدّه قال: فوجدت ليده برْدًا وريحًا، كأنما أخرجها من جُونة عطار!]][3].

ونام رسولُ صلى الله عليه وسلم في دار أنس فعَرق، فجاءت أمه بقارُورة تجمع فيها عرقه، فسألها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك، فقالت: (نجعلُه في طيبنا، وهو من أطيب الطيب).

وذكر البخاري في تاريخه الكبير، عن جابر: [[لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يمرّ في طريق فيتبعه أحد إلا عُرف أنه سلكه من طِيبه]][4].

وذكر إسحاق بن راهويه أن تلك كانت رائحته بلا طيب، صلى الله عليه وسلم.

وقال علي رضي الله عنه: [[غسلت النبي صلى الله عليه وسلم، فذهبت أنظر ما يكون من الميت فلم أجد شيئًا، فقلت: طِبت حيًا وميتًا، قال: وسطعت منه ريح طيبة لم نجد مثلها قطّ]][5].

ومثله قال أبو بكر رضي الله عنه حين قبل النبي صلى الله عليه وسلم بعد موته[6].

فصـــل [ذكاء النبي صلى الله عليه وسلم وقوة حواسه]

وأما وفُور عقله، وذكاء لبّه، وقوة حواسه، وفصاحة لسانه، واعتدال حركاته، وحسن شمائله فلا مرْية أنه كان أعقل الناس وأذكاهم.

ومن تأمل تدبيره أمر بواطن الخلق وظواهرهم، وسياسة العامة والخاصة، مع عجيب شمائله، وبديع سيره، فضلًا عما أفاضه من العلم، وقرره من الشرع دون تعلُّمٍ سبق، ولا مُمارسة تقدمت، ولا مُطالعة للكتب منه، لم يمْتر في رجحان عقله، وثقوب فهمه لأول بديهة، وهذا ما لا يحتاج إلى تقريره لتحقيقه.

وقال مجاهد: [[كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام في الصلاة يرى من خلفه كما يرى من بين يديه]].

وفي الموطأ عنه عليه السلام: {إني لأراكم من وراء ظهري}.

ونحوه عن أنس في الصحيحين.

---

(1) صحيح مسلم (261).

(2) صحيح مسلم (2330).

(3) صحيح مسلم (2329)، وقوله (جؤنة عطار): وعاء من جلد يجعل فيه العطار طيبه.

(4) التاريخ الكبير (1/ 399 – 400)، سنن الدارمي (1/ 32).

(5) سنن ابن ماجة (1467)، المستدرك (1/ 362).

(6) البزار (852 – كشف)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (9/ 37 – 38) وقال: (ورجاله رجال الصحيح غير علي بن المنذر وهو ثقة).

وهذا محمول على رؤية العين، وهو قول أحمد بن حنبل وغيره.

وذهب بعضهم إلى ردها إلى العلم، والظواهر تخالفه، ولا إحالة في ذلك، وهي من خواص الأنبياء وخِصالهم.

وقد جاءت الأخبار بأنه صرع رُكانة أشد أهل وقته[1]، ثلاث مرات.

وقال أبو هريرة: (ما رأيت أحدًا أسرع من رسول الله صلى الله عليه وسلم في مشيه، كأنما الأرض تطوى له، إنا لنجْهد أنفسنا وهو غير مكترث).

وفي صفته أن ضحكه كان تبسمًا[2]، إذا التفت التفت معًا، وإذا مشى مشى تقلّعًا كأنما ينحطّ من صبب[3].

فصـل: [شرف نسب النبي صلى الله عليه وسلم وكرم بلده ومنشئه]

وأما شرفُ نسبه وكرم بلده ومنشئه فممّا لا يحتاجُ إلى إقامة دليل عليه، ولا بيان مُشكل ولا خفيّ منه؛ فإنه نخبة بني هاشم، وسُلالة قريش وصمِيمُها، وأشرف العرب، وأعزهم نفرًا من قبل أبيه وأمه.

وبلده مكة أكرم بلاد الله على الله وعلى عباده.

عن العباس قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: {إن الله خلق الخلق فجعلني من خيرهم، من خير قرنهم، ثم تخير القبائل فجعلني من خير قبيلة، ثم تخير البيوت فجعلني من خير بيوتهم، فأنا خيرهم نفسًا، وخيرهم بيتًا}[4].

وعن واثلة بن الأسقع قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشًا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم}[5].

فصـل: [هديه فيما يمتدح بقلته كالطعام والنوم]

عن المقدام بن معد يكرب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: {ما ملأ ابن آدم وعاءً شرًا من بطنه، حسب ابن آدم أكلات يُقمْن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه}[6].

وكثرة النوم من كثرة الأكل والشرب.

قال سفيان الثوري: (بقِلة الطعام يملك سهر الليل).

وقال بعضُ السلف: (لا تأكلوا كثيرًا فتشربوا كثيرًا، فترقدوا كثيرًا، فتخسروا كثيرًا).

---

(1) سنن أبي داود (4078)، سنن الترمذي (1784) وقال الترمذي: (هذا حديث حسن غريب، وإسناده ليس بالقائم، ولا نعرف أبا الحسن العسقلاني، ولا ابن ركانة).

(2) سنن الترمذي (5/ 601)(3642) وصححه الألباني.

(3) سنن الترمذي (5/ 599)(3638) وصححه الألباني.

(4) سنن الترمذي (3607)، وقال الترمذي: (هذا حديث حسن).

(5) صحيح مسلم (2276)، سنن الترمذي (3605، 3606).

(6) سنن الترمذي (2380)، سنن ابن ماجة (3349).

وقد روي عنه صلى الله عليه وسلم [[أنه كان أحب الطعام إليه ما كان على ضففٍ]][1]، أي: كثرة الأيدي.

وقالت عائشة رضي الله عنها: [[لم يمتلئ جوف النبي صلى الله عليه وسلم شبعًا قط]]، وثبت أنه كان في أهله لا يسألهم طعامًا ولا يتشهّاه، إن أطعموه أكل، وما أطعموه قبل، وما سقوه شرب.

وفي صحيح الحديث قوله صلى الله عليه وسلم: {أما أنا فلا آكل مُتكئًا}[2].

والاتكاءُ: هو التمكن للأكل كالمتربع وشبهه من تمكن الجلسات التي يعتمد فيها الجالس على ما تحته، والجالس على هذه الهيئة يستدعي الأكل ويستكثر منه، والنبي صلى الله عليه وسلم إنما كان جلوسه للأكل جلوس المستوفز مُقعِيًا[3]، ويقول: {إنما أنا عبدٌ آكلُ كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد}، وليس معنى الحديث في الاتكاء: الميل على شِقّ عند المحققين.

وكذلك نومُه صلى الله عليه وسلم كان قليلًا، شَهِدت بذلك الآثار الصحيحة، ومع ذلك فقد قال: {إن عيني تنامان ولا ينام قلبي}[4].

وكان نومه على جانبه الأيمن استظهارًا على قلة النوم، لأنه على الجانب الأيسر أهنأ، لهُدوء القلب وما يتعلق به من الأعضاء الباطنة حينئذ، لميلِها إلى الجانب الأيسر، فيستدعي ذلك الاستثقال فيه والطول، وإذا نام النائم على الأيمن تعلق القلب وقلِق، فأسرع الإفاقة ولم يغمرُه الاستغراق.

فصـل: [هديه فيما يمتدح بكثرته كالنكاح والجاه]

والضرب الثاني ما يتفقُ المدح بكثرته، والفخر بوفوره، كالنكاح والجاه:

أما النكاح فمتفق فيه شرعًا وعادة؛ فإنه دليل الكمال، وصحة الذكورية، ولم يزل التفاخر بكثرته عادة معروفة، والتمادح به سيرة ماضية، وهو في الشرع سُنة مأثورة، وقد قال ابن عباس: (أفضلُ هذه الأمة أكثرها نساءً)[5]، يشير إليه صلى الله عليه وسلم، وقال عليه السلام: {تناكحوا تناسلوا؛ فإني مباهٍ بكم الأمم يوم القيامة}[6].

ونهى عن التبتل[7] مع ما فيه من قمع الشهوة، وغض البصر اللذين نبه عليهما صلى الله عليه وسلم بقوله: {من كان ذا طول فليتزوج؛ فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج}[8]، حتى لم يره العلماء مما يقدح في الزهد.

وقد كان زهاد الصحابة كثيري الزوجات والسرارِي، كثيري النكاح، وحُكي في ذلك عن علي، والحسن، وابن عمر،

---

(1) مسند أحمد (3/ 270).

(2) صحيح البخاري (5398، 5399)، سنن أبي داود (3769).

(3) صحيح مسلم (2044).

(4) صحيح البخاري (1147، 2013)، صحيح مسلم (738).

(5) صحيح البخاري (5069).

(6) المعجم الأوسط.

(7) صحيح البخاري (5073، 5074)، صحيح مسلم (1402).

(8) صحيح البخاري (5066)، صحيح مسلم (1400).

وغيرهم غيرُ شيء، وقد كره غير واحد أن يلقى الله عزبًا.

وأما الجاهُ فمحمودٌ عند العقلاء عادة، وقد قال الله تعالى في صفة عيسى عليه السلام: ((وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ)) [آل عمران:45]، لكن آفاته كثيرة؛ فهو مضر لبعض الناس، فلذلك ذمه من ذمه، ومدح ضده.

وورد في الشرع مدح الخمول[1]، وذم العُلّو في الأرض.

وكان صلى الله عليه وسلم قد رُزِقَ من الحِشْمَة، والمكانةِ في القلوب، والعظمة قبل النبوة عند الجاهلية وبعدها، وهم يكذبونه ويؤذون أصحابه، ويقصدون أذاه في نفسه خُفية حتى إذا واجههم أعظموا أمره، وقضوا حاجته.

وقد كان يبهت ويفرق لرؤيته، وفي حديث أبي مسعود أن رجلًا قام بين يديه فأرعد، فقال: {هون عليك؛ فإني لست بملك..}[2] الحديث.

فأما عظم قدرِه بالنبوة، وشريف منزلته بالرسالة، وإنافةُ رُتبته بالاصطفاء والكرامةِ في الدنيا فأمر هو مبلغ النهاية، ثم هو في الآخرة سيد ولدِ آدم.

فصـل: [هديه فيما تختلف الحالات في التمدح به ككثرة المال]

وأما الضرب الثالث، فهو ما تختلف الحالات في التمدح به والتفاخر بسببه، والتفضيل لأجْله، ككثرة المال، فصاحُبه على الجملة معظّم عند العامة، لاعتقادها توصله به إلى حاجاته، وتمكن أغراضه بسببه، وإلا فليس فضِيلة في نفسه، فمتى كان المالُ بهذه الصورة، وصاحبه مُنفقًا له في مهمات من اعتراه[3] وأمله، وتصريفه في مواضعه مُشْتريًا به المعالي والثناء الحسن، والمنزلة في القلوب، كان فضيلة في صاحبه عند أهل الدنيا، وإذا صرفه في وجوه البر، وأنفقه في سبيل الخير، وقصد بذلك الله والدار الآخرة، كان فضيلة عند الكل بكل حال، ومتى كان صاحبه ممسكًا له غير موجهه وجوهه، حريصًا على جمعه، عاد كالعدم، وكان منقصة في صاحبه، ولم يقف به على جَدد[4] السلامة، بل أوقعه في هوّة رذيلة البخل، ومذمة النّذالة.

فإذًا التمدح بالمال وفضيلته عند مفضله ليست لنفسه، وإنما هو للتوصل به إلى غيره، وتصريفه في متصرفاته، فجامعه إذا لم يضعه مواضعه، ولا وجّهه وجوهَه غير مليء بالحقيقة ولا غني بالمعنى، ولا ممتدح عند أحد من العقلاء؛ بل هو فقير أبدًا غيرُ واصل إلى غرض من أغراضه؛ إذ ما بيده من المال الموصل لها لم يسلّط عليه، فأشْبه خازن مال غيره، ولا مال له، فكأنه ليس في يده منه شيء، والمنفق مليء وغني بتحصيله فوائد المال، وإن لم يبق في يده من المال شيء.

فانظر سيرة نبينا صلى الله عليه وسلم وخلُقه فى المال تجدْه قد أوتي خزائن الأرض، ومفاتيح البلاد، وأحلت له الغنائم، ولم تحل لنبي قبله، وفُتح عليه في حياته صلى الله عليه وسلم بلاد الحجاز واليمن، وجميع جزيرة العرب، وما دانى

---

(1) الخمول: خمل الرجل: خفي فلم يعرف ولم يذكر.

(2) المستدرك (2/ 466)(3/ 48) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

(3) اعتراه: غشيه.

(4) الجدد: الأرض الصلبة.

ذلك من الشام والعراق، وجلبت إليه من أخماسها وجِزيتها وصدقاتها ما لا يُجنى للملوك إلا بعضُه، وهادتْه جماعة من ملوك الأقاليم فما استأثر بشيء منه، ولا أمسك منه درهمًا، بل صرفه مصارفه، وأغنى به غيره، وقوَّى به المسلمين، وقال: {ما يسرني أن لي أحُدًا ذهبًا يبيتُ عندي منه دينار، إلا دينارًا أرصده لدين}[1]، ومات ودرعه مرهونة في نفقة عياله[2]، واقتصر من نفقته وملبسه ومسكنه على ما تدعو ضرورته إليه.

وزهد فيما سواه، فكان يلبس ما وجده، فيلبس في الغالب الشملة[3]، والكساء الخشن، والبرد[4] الغليظ، ويقسم على من حضره أقبية[5] الديباج المخوّصة بالذهب، ويرفع لمن لم يحضره؛ إذ المُباهاة في الملابس والتزين بها ليست من خصال الشرف والجلالة، وهي من سمات النساء.

والمحمود منها نقاوة الثوب، والتوسط في جنسه، وكونه لبس مثله، غير مُسقط لمروءة جنسه مما لا يؤدي إلى الشهرة في الطرفين.

وقد ذم الشرع ذلك؛ وغاية الفخر فيه في العادة عند الناس إنما يعود إلى الفخر بكثرة الموجود، ووُفور الحال.

وكذلك التباهي بجودَة المسكن، وسعة المنزل، وتكثير آلاته وخدمه ومركوباته.

ومن ملك الأرض، وجُبي إليه ما فيها، فترك ذلك زهدًا وتنزهًا، فهو حائز لفضيلة المال، ومالك للفخر بهذه الخصلة، ومُعرق[6] في المدح بإضرابه عنها، وزهده في فانيها، وبذلها في مظانها.

فصـل: [أخلاق النبي عليه الصلاة والسلام]

وأما الخصالُ المكتسبة من الأخلاق الحميدة والآداب الشريفة التي اتفق جميع العقلاء على تفضيل صاحبها، وتعظيم المتصف بالخلق الواحد منها، فضلًا عما فوقه وأثنى الشرع على جميعها، وأمر بها، ووعد السعادة الدائمة للمتخلّق بها، ووصف بعضها بأنه من أجزاء النبوة، وهي المسماة بحسن الخُلُق؛ وهو الاعتدالُ في قُوى النفس وأوصافها، والتوسط فيها دون الميل إلى منحرف أطرافها، فجميعُها قد كانت خُلقَ نبينا محمد صلى الله عليه وسلم على الانتهاء في كمالها، والاعتدال إلى غايتها، حتى أثنى الله بذلك عليه، فقال تعالى: ((وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)) [القلم:4].

قالت عائشة رضي الله عنها: {كان خلقه القرآن}[7].

وقال صلى الله عليه وسلم: {بعثت لأتمم مكارم الأخلاق}.

---

(1) صحيح البخاري (6445)، صحيح مسلم (991).

(2) صحيح البخاري (2196).

(3) الشملة: شقة من الثياب ذات خمل يتوشح بها ويتلفح.

(4) البرد: كساء مخطط يُلتحف به.

(5) أقبية: جمع قباء، وهو ثوب يُلبس فوق الثياب أو القميص.

(6) أعرق الرجل: صار عريقًا، وهو الذي له عرق في الكرم.

(7) صحيح مسلم (746).

قال أنس: [[كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقًا]][1].

فصـل: [في حلمه وعفوه وصبره صلى الله عليه وسلم]

هذا كله مما أدّب الله تعالى به نبيه صلى الله عليه وسلم، فقال: ((خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ)) [الأعراف:199].

وقال الله له: ((وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ)) [لقمان:17].

وقال تعالى: ((فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ)) [الأحقاف:35].

وقال: ((وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)) [النور:22].

وقال: ((وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ)) [الشورى:43].

ولا خفاء بما يُؤثر من حِلْمِه واحتماله، وأن كل حليم قد عُرفت منه زلّة، وحفظت عنه هفْوة، وهو صلى الله عليه وسلم لا يزيدُ مع كثرة الأذى إلا صبرًا، وعلى إسراف الجاهِل إلا حِلمًا.

عن عائشة رضي الله عنها، قالت: (ما خُيرّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في أمرين قطّ إلا اختار أيْسرهما ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله تعالى، فينتقم لله بها)[2].

ولما قال له الرجل: (اعدل، فإن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله)، لم يزده في جوابه أن بين له ما جهله، ووعظ نفْسه، وذكّرها بما قال له، فقال: {ويحكَ! فمن يعدل إن لم أعدل! خِبتُ وخسرتُ إن لم أعدل![3]، ونهى من أراد من أصحابه قتْله.

ولما تصدّى له غوْرث بن الحارث ليفتك به، ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم مُنتبذٌ تحت شجرة وحده قائلًا، والناس قائلون، في غزاة، فلم ينتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا وهو قائم والسيف صلتًا في يده، فقال: {من يمنعك مني؟ فقال: الله، فسقط السيف من يده، فأخذه النبي صلى الله عليه وسلم، وقال: من يمنعك مني؟ قال: كن خير آخذٍ، فتركه وعفا عنه، فجاء إلى قومه فقال: جئتُكم من عند خيْر الناسِ}[4].

ومن عظيم خبرِه في العفو عفوه عن اليهودية التي سمّته في الشاة بعد اعترافها.

ولم يؤاخذ لبيد بن الأعصم إذ سحره، وقد أُعلم به وأُوحي إليه بشرح أمره، ولا عتب عليه فضلًا عن معاقبته[5].

وكذلك لم يؤاخذ عبد الله بن أبي وأشباهَه من المنافقين بعظيم ما نُقل عنهم في جهته قولًا وفعلًا، بل قال لمن أشار

---

(1) صحيح مسلم (2150).

(2) صحيح مسلم (2327).

(3) صحيح مسلم (1062)(1063)(1064).

(4) صحيح البخاري (2910)، صحيح مسلم (843).

(5) مسند أحمد (4/ 367)، سنن النسائي (4091).

بقتل بعضهم: {لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه}[1].

وعن أنس رضي الله عنه: {كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم، وعليه بُرْدٌ غليظ الحاشية، فجبذه الأعرابي بردائه جبذة شديدة حتى أثرت حاشية البردِ في صفحة عاتقِه، ثم قال: يا محمد! احمل لي على بعيريّ هذين من مال الله الذي عندك، فإنك لا تحملُ لي من مالك ومال أبيك، فسكت النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قال: المال مال الله، وأنا عبده، ثم قال: ويُقاد منك -يا أعرابي- ما فعلت بي. قال: لا. قال: لِمَ؟ قال: لأنك لا تكافِئ بالسيئة السيئة}[2]، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم؛ ثم أمر أن يحمل له على بعير شعيرٌ، وعلى الآخر تمر.

قالت عائشة رضي الله عنها: {ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم منتصرًا[3] من مظلمة ظلمها قط ما لم تكن حُرمة من محارم الله، وما ضرب بيده شيئًا قط إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما ضرب خادمًا قط ولا امرأة}.

وجاءه زيد بن سعْنة قبل إسلامه يتقضاه دينًا عليه، فجبذ ثوبه عن منكبه، وأخذ بمجامع ثيابه، وأغلظ له، ثم قال: إنكم -يا بني عبد المطلب- مُطْلٌ، فانتهره عُمر، وشدد له في القول، والنبي صلى الله عليه وسلم يبتسم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {أنا وهو كُنا إلى غير هذا أَحوج منك يا عمر! تأمرني بحُسن القضاء، وتأمره بحسن التقاضي[4]، ثم قال: لقد بقِي من أجَله ثلاث، وأمر عُمر يقضيه مالَه ويزيده عشرين صاعًا لما روّعه، فكان سببَ إسلامه، وذلك أنه كان يقول: ما بقي من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها في محمد إلا اثنتين لم أخبُرهما: يسبقُ حلْمُه جهله ، ولا تزيده شدّة الجهل إلا حلمًا}، فاختبره بهذا، فوجده كما وُصف.

والحديث عن حلمه عليه السلام وصبره وعفوه عند القدرة أكثر من أن تأتي عليه، وحسبك صبره على مُقاساة قريش، وأذى الجاهلية، ومُصابرته الشدائدَ الصعبةَ معهم إلى أن أظفره الله عليهم، وحكَّمه فيهم، وهم لا يشكون في استئصال شأفتهم، وإبادة خضْرائهم، فما زاد على أن عفا وصفح، وقال: {ما تقولون أني فاعلٌ بكم؟ قالوا: خيرًا، أخٌ كريم، وابن أخٌ كريم، فقال: أقولُ كما قال أخي يوسف: ((قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)) [يوسف:92]، اذهبوا فأنتم الطلقاء}[5].

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أبعد الناسِ غضبًا، وأسرعهم رِضًا، صلى الله عليه وسلم.

فصـل: [في ذكر جوده وكرمه وسماحته]

كان صلى الله عليه وسلم لا يُوازى في هذه الأخلاق الكريمة، ولا يُبارى، بهذا وصفه كل من عرفه.

---

(1) صحيح البخاري (4905، 4907)، صحيح مسلم (2584).

(2) صحيح البخاري (3149، 5809، 6088)، صحيح مسلم (1057).

(3) صحيح البخاري (3560، 6126، 6786، 6853)، صحيح مسلم (2327) بلفظ مقارب.

(4) صحيح ابن حبّان (288- إحسان)، دلائل النبوة للبيهقي (6/ 278- 280).

(5) سنن النسائي (318).

عن ابن المنكدر، سمعت جابر بن عبد الله يقول: (ما سُئل النبي صلى الله عليه وسلم عن شيء فقال: لا)[1].

وقال ابن عباس: {كان النبي صلى الله عليه وسلم أجود الناس بالخير[2]، وأجود ما كان في شهر رمضان، وكان إذا لقيه جبريل عليه السلام أجود بالخير من الرِّيح المُرسَلة}.

وعن أنس أن رجلًا سأله فأعطاه غنمًا بين جبلين، فرجع إلى بلده، وقال: (أسْلِموا، فإن محمدًا يُعطي عطاء من لا يخشى فاقة)[3].

وأعطى غير واحد مائة من الإبل، وأعطى صفوان مائة ثم مائة[4] ثم مائة، وهذه كانت حالُه صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث، وقد قال له ورقة بن نوفل: (إنك تحمل الكل وتكسب المعدوم)[5].

ورد على هوازن سباياها، وكانوا ستة الآف[6].

وأعطى العباس من الذهب ما لم يُطق حمْلَه[7].

وجاءه رجل فسأله، فقال: {ما عندي شيء، ولكن ابتع عليّ، فإذا جاءنا شيء قضيناه.

فقال له عمر: ما كلفك الله ما لا تقدر عليه.

فكره النبي صلى الله عليه وسلم ذلك. فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله! أنفق ولا تخفْ من ذي العرش إقلالًا.

فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم، وعرف البشر في وجهه، وقال: بهذا أمرت} ذكره الترمذي.

وعن معوذ ابن عفراء[8] قال: {أتيت النبي صلى الله عليه وسلم بقناع من رُطب -يريد طبقًا- وأجْر زغب -يريد قثاءً- فأعطاني ملء كفه حليًا وذهبًا}[9].

فصل: [في ذكر شجاعته صلى الله عليه وسلم]

كان صلى الله عليه وسلم منهما بالمكان الذي لا يُجْهل؛ قد حضر المواقف الصعبة، وفرّ الكماةُ والأبطال عنه غير مرة، وهو ثابت لا يبرح، ومقبل لا يدبر ولا يتزحزح، وما شجاع إلا وقد أحْصيت له فرّة، وحفظت عنه جولة[10]، سواه.

عن أبي إسحاق: سمع البراء وسأله رجلٌ: {أفررتم يوم حنين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: لكن رسول

---

(1) صحيح البخاري (6034)، صحيح مسلم (2311).

(2) صحيح البخاري (6، 3554، 3220، 1902، 4997).

(3) صحيح مسلم (2312).

(4) صحيح مسلم (2313).

(5) في الصحيحين، لكن القائل هذا خديجة.

(6) صحيح البخاري (2307، 2539).

(7) صحيح البخاري تعليقًا (421).

(8) الصواب: الربيع بنت معوذ، كما سيأتي في تخريج الحديث.

(9) مسند أحمد (6/ 359)(27068).

(10) جولة: نفور وزوال عن الموقف.

الله صلى الله عليه وسلم لم يفر[1]، ثم قال: لقد رأيته على بغلته البيضاء وأبو سفيان آخذ بلجامها، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: أنا النبي لا كذبْ}.

وذكر مسلم عن العباس، قال: {فلما التقى المسلمون والكفار ولَّى المسلمون مُدبرين، فطفق رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يركضُ بغلته نحو الكفار، وأنا آخذ بلجامها أكفها إرادة ألاّ تسرع، وأبو سفيان آخذ بركابه، ثم نادى: يا للمسلمين!..} الحديث[2].

وقيل: {وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غضب- ولا يغضبُ إلا الله- لم يقُم لغضبه شيء}[3].

وقال علي رضي الله عنه: {إنا كنا إذا حمي البأس- ويروى: اشتدّ البأس- واحمّرت الحدقُ اتقينا برسول الله، فما يكون أحد أقرب إلى العدوّ منه، ولقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي صلى الله عليه وسلم، وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذٍ بأسًا}[4].

وعن أنس: {كان النبي صلى الله عليه وسلم أحسن الناس، وأجود الناس، وأشجع الناس؛ لقد فزعَ أهل المدينة ليلة، فانطلق ناسٌ قبل الصوت، فتلقّاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعًا، قد سبقهم إلى الصوت، واستبرأ الخبر على فرس لأبي طلحة عُري، والسيف في عُنقه، وهو يقول: لن تراعوا}[5].

ورآه أُبي بن خلف يوم أحد وهو يقول: أين محمد؟ لا نجوتُ إن نجا، وقد كان يقول للنبي صلى الله عليه وسلم حين افتدى يوم بدر: عندي فرسٌ أعلفها كلّ يوم فرقًا من ذُرة أقتلك عليها، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: {أنا أقتلكَ إن شاء الله}[6].

فلما رآه يوم أحد شدّ أبي على فرسه على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاعترضه رجالٌ من المسلمين، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: هكذا- أي: خلوا طريقه- وتناول الحرْبة من الحارث بن الصّمة، فانتفض بها انتفاضةً تطايرُوا عنه تطايُر الشَّعْرَاء عن ظهر البعير إذا انتفض، ثم استقبله النبي صلى الله عليه وسلم، فطعنه في عنقه طعنةً تدأدأ[7] منها عن فرسه مرارًا، وقيل: بل كسر ضِلعًا من أضلاعه، فرجع إلى قريش يقول: قتلني محمد، وهم يقولون: لا بأس بك. فقال: لو كان ما بي بجميع الناس لقتلهم، أليس قد قال: أنا أقتلك؟ والله! لو بصق علي لقتلني، فمات بسرف[8] في قفولهم إلى مكة.

فصـل: [في ذكر حيائه صلى الله عليه وسلم]

---

(1) صحيح البخاري (2930)، صحيح مسلم (1776).

(2) صحيح البخاري (1775).

(3) هو في حديث ابن أبي هالة.

(4) دلائل النبوة للبيهقي (3/ 258)من حديث علي، وفي (5/ 135) من حديث البراء. وبعضه في صحيح مسلم (1776) من حديث البراء.

(5) صحيح البخاري (2820، 2908، 4030، 2866، 6033)، صحيح مسلم (2307).

(6) دلائل النبوة للبيهقي (3/ 258)، مصنف عبد الرزاق (5/ 356، 357).

(7) تدأدأ: تدحرج.

(8) سرف: اسم لموضع على ستة أميال من مكة، وقيل: سبعة، وقيل: تسعة.

كان النبي صلى الله عليه وسلم وسلم أشد الناس حياءً، وأكثرهم عن العوْرات إغضاءً، قال الله سبحانه: ((إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ...)) [الأحزاب:53].

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: {كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أشد حياءً من العذراء في خِدْرِها، وكان إذا كره شيئًا عرفناه في وجْهه}[1].

وكان صلى الله عليه وسلم لطيف البشرة، رقيق الظاهر، لا يشافهُ أحدًا بما يكرهه حياءً وكرم نفْس.

وعن عائشة رضي الله عنها: {كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا بلغه عن أحد ما يكرهه لم يقل: ما بال فلان يقول كذا، ولكن يقول: ما بال أقوام يصنعون، أو يقولون كذا! ينهى عنه، ولا يسمي فاعله}[2].

قالت عائشة في الصحيح: {لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم فاحشًا ولا متفحشًا ولا سخّابًا بالأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفحُ}[3].

فصـل: [في ذكر حسن عشرته وبسط خلقه صلى الله عليه وسلم مع أصناف الخلق]

وأما حسن عشرتِه وأدبه وبسطُ خلقه صلى الله عليه وسلم مع أصناف الخلق فبحيثُ انتشرت به الأخبار الصحيحة.

قال علي رضي الله عنه في وصْفه عليه الصلاة والسلام: {كان أوسع الناس صدرًا، وأصدق الناس لهجةً، وألينهم عريكةً، وأكرمهم عشْرةً}.

عن قيس بن سعد، قال: {زارَنا رسول الله صلى الله عليه وسلم -وذكر قصةً في آخرها-: فلما أراد الانصراف قرَّب له سعدٌ حمارًا، وطَّأ عليه بقطِيفة، فركب رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال سعد:

يا قيس! اصحَبْ رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال قيس: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اركبْ، فأبيت، فقال: إما أن تركب وإما أن تنصرف. فانصرفتُ}.

وفي رواية أُخرى: {اركبْ أمامي، فصاحبُ الدابّة أولى بمُقدّمِها}[4].

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤلّفُهم[5]، ولا يُنفّرُهم، ويكرم كريم كل قوم ويُولّيه عليهم، ويحذر الناس، ويحترسُ منهم من غير أن يُطوي عن أحد منهم بشره ولا خلقه، يتفقّد أصحابه، ويعطي كل جلسائه نصيبه، لا يحسب جليسه أن أحدًا أكرم عليه منه. من جالسه أو قاربه لحاجة صابرَه حتى يكون هو المنصرف عنه، ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها، أو بميْسور من القول، قد وسِعَ الناس بسطه وخلقه، فصار لهم أبًا، وصاروا عنده في الحق سواءً، بهذا وصفه ابن أبي هالة، قال: {وكان دائم البشْر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظٍ ولا غليظ، ولا سخاب، ولا فحاش ولا عياب،

---

(1) صحيح البخاري (3562، 6102، 6119)، صحيح مسلم (2320).

(2) سنن أبي داود (4788).

(3) سنن الترمذي (2016) وصححه.

(4) سنن أبي داود (5185).

(5) هو قطعة من حديث هند بن أبي هالة.

ولا مدّاح، يتغافل عمّا لا يشتهي، ولا يؤْيسُ منه}.

وقال الله تعالى: ((فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)) [آل عمران:159].

وقال تعالى: ((ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ)) [المؤمنون:96].

وكان يُجيب من دعاه، ويقبل الهدية ولو كانت كُراعًا ويكافئ عليها.

قال أنس: {خدمتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين، فما قال لي: أفّ قط، وما قال لشيء صنعته: لم صنعْته؟ ولا لشيء تركتُه: لم تركْته؟}[1].

وقال جرير بن عبد الله: {ما حجبني رسول الله صلى الله عليه وسلم منذُ أسلمتُ، ولا رآني إلاّ تبسّم}[2].

وكان يمازح أصحابه، ويخالِطهم ويحادثهم، ويُداعِبُ صِبْيانهم، ويُجْلِسهم في حجرِه، ويجيب دعوةَ الحرّ والعبد[3]، والأمةِ والمسكين، ويعود المرضى في أقصى المدينة، ويقبلُ عذْر المعتذر[4].

قال أنس: {ما التقمَ أحدٌ أذُن رسول الله صلى الله عليه وسلم فينحّي رأسَه حتى يكون الرجل هو الذي ينحّي رأسه[5]، وما أخذ أحدٌ بيده فيرسل يده حتى يرسلها الآخر؛ ولم يُر مُقدّمًا ركبتيه بين يديْ جليس له}.

يكرم من يدخل عليه، وربما بسطَ له ثوبه، ويؤثرُه بالوسادة التي تحته، ويعزم عليه في الجلوس عليها إن أبى، ويُكني أصحابه، ويدعوهم بأحب أسمائهم تكرمة لهم، ولا يقطعُ على أحد حديثه حتى يتجوّز فيقطعه بنهيٍ أو قيام، ويروى: بانتهاءٍ أو قيام.

وكان أكثر الناس تبسمًا، وأطيبهم نفسًا، ما لم ينزل عليه قرآنٌ أو يَعِظْ أو يخطب.

قال عبد الله بن الحارث: {ما رأيتُ أحدًا أكثر تبسُّمًا من رسول الله صلى الله عليه وسلم}[6].

وعن أنس: {كان خدمُ المدينة يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى الغداة بآنيتهم فيها الماءُ، فما يُؤتى بآنية إلا غمس يده فيها، وربما كان ذلك في الغداة الباردة- يريدون به التبرك}[7].

فصـل: [في شفقته ورحمته صلى الله عليه وسلم بأمته]

وأما الشفقة والرأفةُ والرحمة لجميع الخلق فقد قال الله تعالى فيه: ((عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)) [التوبة:128].

---

(1) صحيح البخاري (6038)، صحيح مسلم (2309).

(2) صحيح البخاري (3035، 3822، 6089)، صحيح مسلم (2475).

(3) سنن ابن ماجة (2296).

(4) في الصحيح قصة المتخلفين عن غزوة تبوك، فكان يقبل اعتذارهم ويكل سرائرهم إلى الله.

(5) سنن أبي داود (4794).

(6) مسند أحمد (4/ 190)(1740)، سنن الترمذي (3641)، وقال: (غريب).

(7) صحيح مسلم (3324).

وقال تعالى: ((وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)) [الأنبياء:107].

عن ابن شهاب قال: غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة، وذكر حنيْنا، قال: {فأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم صفوان بن أمية مائة من النّعم، ثم مائة، ثم مائة}[1].

قال ابن شهاب حدثنا سعيد بن المُسَيب أن صفوان قال: {والله! لقد أعطاني ما أعطاني وإنه لأبغض الخلق إلي، فما زال يُعطيني حتى إنه لأحب الخلق إلي}.

وروي عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال: {لا يُبلغني أحدٌ منكم عن أحدٍ من أصحابي شيئًا؛ فإني أحبُّ أن أخرجَ إليكم وأنا سليمُ الصدر}[2].

ومن شفقته على أمته عليه السلام تخفيفه وتسهيله عليهم، وكراهتُه أشياءَ مخافةَ أن تفرضَ عليهم، كقوله: {لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك مع كل وضوء}[3].

وخبرُ صلاة الليل[4].

ونهيهم عن الوصال[5].

وكراهته دخول الكعبة لئلا[6] يُعنت أمته.

وكان يسمع بكاء الصبي فيتجوز في صلاته[7].

ومن شفقته صلى الله عليه وسلم أن دعا ربه وعاهده، فقال: {أيما رجل سببته أو لعنته فاجعل ذلك له زكاة ورحمة، وصلاة وطهُورًا، وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة}[8].

ولما كذبه قومُه أتاه جبريل عليه السلام، فقال له: {إن الله تعالى قد سمع قول قومك لك، وما ردّوا عليك، وقد أمر ملك الجبال لتأمره بما شئتَ فيهم، فناداه ملك الجبال وسلّم عليه، وقال: مرني بما شئتَ، وإن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: بل أرجو أن يخرجَ اللهُ من أصلابهم من يعبدُ الله وحده ولا يشرك به شيئًا}[9].

قالت عائشة: {ما خيّر رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا اختار أيسرهما}[10].

---

(1) صحيح مسلم (2313).

(2) سنن أبي داود (4860)، سنن الترمذي (3896).

(3) صحيح البخاري (7240)، صحيح مسلم (252).

(4) صحيح البخاري (1129)، صحيح مسلم (761).

(5) صحيح البخاري (1965، 1966)، صحيح مسلم (1103).

(6) سنن أبي داود (2029)، سنن الترمذي (873)، سنن ابن ماجة (3064).

(7) صحيح البخاري (708)، صحيح مسلم (470).

(8) صحيح البخاري (6361)، صحيح مسلم (2601).

(9) صحيح البخاري (3231)، صحيح مسلم (1795).

(10) صحيح البخاري (3560، 6126، 6786، 6853).

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: {كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخوّلنا بالموعظة مخافةَ السآمةِ علينا}[1].

وعن عائشة أنها ركبت بعيرًا وفيه صعوبةٌ، فجعلت تردِّده، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {عليك بالرفق}[2].

فصـل: [في حسن عهده وصلته للرحم]

عن أنس: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أتي بهدية قال: {اذهبوا بها إلى بيت فلانة؛ فإنها كانت صديقة لخديجة، إنها كانت تحبُّ خديجة}[3].

وعن عائشة قالت: (ما غرت على امرأة ما غرتُ على خديجة، لما كنتُ أسمعه يذكرها، وإن كان ليذبح الشاة فيُهديها إلى خلائلها)[4].

واستأذنتْ عليه أختها فارتاحَ إليها.

ودخلت عليه امرأةٌ، فهشّ لها، وأحسن السؤال عنها، فلما خرجت قال: {إنها كانت تأتينا أيام خديجة، وإن حُسن العهد من الإيمان}.

ووصفه بعضهم، فقال: كان يصِلُ ذوي رحمه من غير أن يُؤثِرهم على من هو أفضلُ منهم.

وقال صلى الله عليه وسلم: {إن آل أبي فلان ليسوا لي بأولياء غير أن لهم رَحِمًا سأبلّها ببلالها}[5].

وقد صلى عليه السلام بأمامة ابنة ابنته يحملها على عاتقه، فإذا سجد وضعها، وإذا قام حملَها[6].

وعن أبي قتادة: {وفَد وفد للنجاشي، فقام النبي صلى الله عليه وسلم يخدمهم، فقال له أصحابُه: نكفيك، فقال: إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين، وإني أحب أن أكافئهم}[7].

ولما جيء بأخته من الرضاعة الشيماء في سبايا هوازن، وتعرفتْ له بسط لها رداءه، وقال لها: {إن أحببتِ أقمت عندي مكرمة محُبّة، أو متعتك ورجعتِ إلى قومك. فاختارت قومها فمتعها}[8].

وقال أبو الطفيل: {رأيتُ النبي صلى الله عليه وسلم وأنا غلام إذ أقبلت امرأة حتى دنتْ منه، فبسط لها رداءهُ، فجلست عليه، فقلتُ: من هذه؟ قالوا: أُمه التي أرضعته}[9].

---

(1) صحيح البخاري (68، 6411)، صحيح مسلم (2821).

(2) صحيح مسلم (2594).

(3) صحيح ابن حبان (7007- إحسان)، مستدرك الحاكم (4/ 175).

(4) صحيح البخاري (6004)، صحيح مسلم (2435).

(5) صحيح البخاري (5990)، صحيح مسلم (215) بلفظ قريب من هذا.

(6) صحيح البخاري (516، 5996)، صحيح مسلم (543).

(7) دلائل النبوة للبيهقي (2/ 307).

(8) دلائل النبوة للبيهقي (5/ 199).

(9) سنن أبي داود (5144).

وكان يبعثُ إلى ثويبة مولاةِ أبي لهب مرضعته بصلِة وكسوة، فلما ماتت سأل: {من بقي من قرابتها؟ فقيل: لا أحد}.

وفي حديث خديجة رضي الله عنها أنها قالت له صلى الله عليه وسلم: {أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبدًا؛ إنك لتصلُ الرحم وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائبِ الحقّ}[1].

فصـل: [في تواضعه على علو منصبه ورفعة رتبه]

وأما تواضُعه صلى الله عليه وسلم، على علو ورفعة رتبه، فكان أشد الناس تواضعًا، وأقلّهم كِبرًا.

عن أبي أمامة، قال: {خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم متوكئًا على عصا؛ فقمنا له، قال: لا تقوموا كما تقوم الأعاجمُ، يعظّم بعضها بعضًا}[2].

وقال: {إنما أنا عبدٌ آكلُ كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد}.

وكان يركبُ الحمار، ويُردف خلفه، ويعود المساكين، ويُجالس الفقراء، ويُجيب دعوة العبد، ويجلس بين أصحابه مختلطًا بهم حيثما انتهى به المجلس جلس.

وفى حديث عُمر عنه: {لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبدٌ فقولوا: عبد الله ورسوله}[3].

قال أنس: {كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يركبُ الحمار، ويجيب دعوة العبد؛ وكان يوم بني قُريظة على حمار مخطوم بحبل من ليف عليه إكاف}[4]. قال: {وكان يُدعى إلى خُبز الشعير، والإهالة السنخة فيُجيب}.

قال: {وحج صلى الله عليه وسلم على رحْل رثّ، وعليه قطِيفة ما تساوي أربعة دراهم؛ فقال: اللهم اجعله حجًّا لا رياءَ فيه ولا سُمعة}[5].

هذا، وقد فتُحت عليه الأرضُ، وأهْدى في حجّه ذلك مائة بدنةٍ[6].

ولما فُتحت عليه مكة ودخلها بجيوش المسلمين طأطأ على رحْله رأسه حتى كاد يمس قادِمته؛ تواضعًا لله تعالى[7].

ومن تواضُعه صلى الله عليه وسلم قولُه: {لا تفضلوني على يونس بن متى}[8]، و{لا تخُيروني على موسى}[9]، و{نحنُ أحق بالشكّ من إبراهيم[10]، ولو لبثتُ ما لبث يوسف في السجن لأجبت الدّاعي}.

---

(1) صحيح البخاري (3، 4953)، صحيح مسلم (160).

(2) سنن أبي داود (5230)، سنن ابن ماجة (3836).

(3) صحيح البخاري (3445).

(4) سنن أبي داود (2296)، سنن الترمذي (1017)، سنن ابن ماجة (4178).

(5) سنن ابن ماجة (2890).

(6) صحيح مسلم (1218).

(7) المستدرك (3/ 74) وذكره الهيثمي في المجمع (6/ 169) وقال: (.. وفيه عبد الله بن أبي بكر المقدمي وهو ضعيف).

(8) صحيح البخاري (3413)(3416)، صحيح مسلم (2377)(2376).

(9) صحيح مسلم (2373).

(10) صحيح البخاري (3372)، صحيح مسلم (151).

وقال للذي قال له: {يا خير البرية: ذاك إبراهيم}[1].

وعن عائشة، والحسن، وأبي سعيد، وغيرهم في صفته أنه كان في بيته في مهنة أهله، يفلّي ثوبه، ويحلب شاته، ويرقع ثوبه، ويخصفُ نعله، ويخدمُ نفسه، ويقم البيت، ويعقل البعير، ويعلف ناضِحه، ويأكل مع الخادم، ويعجن معها، ويحمل بضاعته من السوق[2].

وعن أنس: {إن كانت الأمةُ من إماء أهل المدينة لتأخذ بيدِ رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنطلق به حيث شاءت حتى يقضي حاجتها}[3].

ودخل عليه رجلٌ فأصابته من هيبته رعدةٌ، فقال له: {هون عليك؛ فإني لستُ بملك، إنما أنا ابنُ امرأةٍ من قريش تأكل القديد}.

فصـل: [في عدله وأمانته وصدق لهجته]

وأما عدله صلى الله عليه وسلم وأمانته وعفته وصدقُ لهجته - فكان صلى الله عليه وسلم آمن الناس، وأعدل الناس، وأعف الناس، وأصدقهم لهجةً منذ كان، اعترف له بذلك مُحادّوه وعداهُ.

وكان يسمى قبل نبوته الأمين.

قال ابن إسحاق: (كان يسمى الأمين بما جمع الله فيه من الأخلاق الصالحة).

ولما اختلفت قريش وتحازبت عند بناء الكعبة فيمن يضعُ الحجر حكَّموا أول داخلٍ عليهم، فإذا النبي صلى الله عليه وسلم داخل، وذلك قبل نبوته، فقالوا: (هذا محمد الأمين، قد رضينا به).

وعن علي أن أبا جهل قال للنبي صلى الله عليه وسلم: (إنّا لا نكذّبكَ، ولكن نكذّب بما جئت به، فأنزل الله تعالى: ((فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ)) [الأنعام:33]).

وسأل هِرقل عنه أبا سفيان فقال: (هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا)[4].

وفي حديث علي في وصفه صلى الله عليه وسلم: {أصدق الناس لهجةً}.

وقال في الصحيح: {ويحك! فمن يعدل إن لم أعدل، خبت وخسرت إن لم أعدل}[5].

وذكر أبو جعفر الطبري عن عليّ عنه صلى الله عليه وسلم: {ما هممت بشيءٍ مما كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرتين، كل ذلك يحول الله بيني وبين ما أريد من ذلك، ثم ما هممتُ بسوء حتى أكرمني الله برسالته؛ قلت ليلةً لغلام كان يرعى معي: لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة فأسمر بها كما يسمر الشباب، فخرجت كذلك حتى جئت أول دارٍ من

---

(1) صحيح مسلم (2369).

(2) صحيح البخاري (6039، 5363).

(3) صحيح البخاري (6072).

(4) صحيح البخاري (7، 2941)، صحيح مسلم (1773).

(5) تقدم تخريجه.

مكة فسمعتُ عزفًا بالدفوف والمزامير لعرسِ بعضهم، فجلست أنظر، فضرب على أُذني فنمتُ، فما أيقظني إلا مس الشمس، فرجعت ولم أقض شيئًا، ثم عراني مرة أخرى مثل ذلك، ثم لم أهُمّ بعد ذلك بسوء}[1].

فصـل: [في وقاره وصمته ومروءته]

روى أبو سعيد الخدري: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جلس في المجلس احتبى بيديه[2]، وكذلك كان أكثر جلوسه لله محتبيًا.

وعن جابر بن سمُرة أنه تربع، وربما جلس القرفُصاء[3].

وكان كثير السكوت لا يتكلم في غير حاجةٍ، يعرض عمن تكلم بغير جميل، وكان ضحكه تبسّمًا، وكلامه فصلًا، لا فضول ولا تقصير، وكان ضحك أصحابه عنده التبسم، توقيرًا له، واقتداءً به، مجلسُه مجلسُ حلْم وحياء، وخيْر وأمانة، لا تُرفعُ فيه الأصوات، ولا تؤبنُ فيه الحُرم[4]، إذا تكلّم أطرَق جلساؤه كأنما على رءوسهم الطير.

وقال عبد الله بن مسعود: (إن أحسن الهدْي هدي محمد صلى الله عليه وسلم)[5].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: {كان في كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ترتيل أو ترسيل}.

قالت عائشة: {كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدّث حديثًا لو عدّه العادّ أحصاه}[6].

وكان صلى الله عليه وسلم يحبّ الطيب والرائحةَ الحسنة، ويستعملها كثيرًا ويحض عليها، ويقول: {حُبّب إلي من دنياكم النساء والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة}[7].

ومن مروءته صلى الله عليه وسلم نهيه عن النفخ في الطعام والشراب، والأمر بالأكْل مما يلي[8]، والأمر بالسواك، وإنقاء البراجِم والرّواجب[9]، واستعمال خصال الفطرة.

فصـل: [في ذكر زهده في الدنيا]

وأما زهده في الدنيا فقد تقدم من الأخبار أثناء هذه السيرة ما يكفي، وحسبك من تقلله منها، وإعراضه عن زهرتها؛ وقد سيقت إليه بحذافيرها، وترادفت، عليه فتوحُها إلى أن توفي صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونةٌ عند يهوديّ في نفقةِ

---

(1) البزار (2403- كشف)، وانظر: دلائل النبوة للبيهقي (2/ 33).

(2) سنن أبي داود (4846) وضعفه.

(3) القرفصاء: هو أن يجلس الرجل على إليتيه ويلصق فخذيه ببطنه ويحتبي بيديه يضعهما على ساقيه.

(4) لا تؤبن فيه الحرم: فلان يؤبن بكذا: أي يذكر بقبيح، والمراد: أن مجلسه لا يذكر فيه أحد بسوء.

(5) صحيح البخاري (6098، 7277).

(6) صحيح مسلم (2493).

(7) سبق تخريج هذا الحديث.

(8) صحيح البخاري (5376، 5377، 5378)، صحيح مسلم (2022).

(9) البراجم: رؤوس السلاميات من ظهر الكف إذا قبض القابض كفّه نشرزت وارتفعت. والرواجب: هي ما بين عقد الأصابع من داخل.

عياله، وهو يدعو ويقول: {اللهم اجعل رزق آل محمدٍ قوتًا}[1].

وعن عائشة قالت: {ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام تباعًا من خبز بر حتى مضى لسبيله}[2].

وفي رواية أخرى: {من خُبز شعير يومين مُتواليين، ولو شاء الله لأعطاه ما لا يخطُر ببال}.

وفي روايةٍ أخرى: {ما شبع آلُ رسول الله صلى الله عليه وسلم من خبز بر حتى لقي الله تعالى}.

وقالت عائشة: {ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم دينارًا ولا درهمًا ولا شاةً ولا بعيرًا}[3].

وفي حديث عمرو بن الحارث: {ما ترك إلا سلاحَه وبغلته وأرضًا صدقة}[4].

قالت عائشة: {ولقد مات وما في بيتي شيء يأكلُه ذو كبدٍ إلا شطر شعير في رفّ لي}.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: {إن كنا آل محمد لنمكث شهرًا ما نستوقد نارًا؛ إن هو إلا التمر والماء}[5].

وعن عبد الرحمن بن عوف: {مات رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يشبع هو وأهل بيته من خبز الشعير}.

قال ابن عباس: {كان صلى الله عليه وسلم يبيت هو وأهله الليالي المتتابعة طاويًا لا يجدون عشاءً}[6].

وعن أنس: {ما أكلَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم على خِوان ولا في سُكرّجةٍ[7]، ولا خُبز له مرقّق، ولا رأى شاة سميطًا قطّ}[8].

وعن عائشة: {إنما كان فراشه الذي ينامُ عليه أدمًا حشوهُ ليف}[9].

فصـل: [في ذكر خوفه من ربه وشدة عبادته له]

وأما خوفُه ربّه، وطاعته له، وشدة عبادته، فعلى قدر علمه بربه، عن سعيد بن المسيّب أن أبا هريرة كان يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا، ولبكيتم كثيرًا}[10].

وفي رواية أبي ذرّ: {إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطتِ السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدًا لله، والله! لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا، ولبكيتم كثيرًا، وما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصّعدات تجأرون إلى الله}.

---

(1) صحيح البخاري (6480)، صحيح مسلم (1055).

(2) صحيح البخاري (6454)، صحيح مسلم (4/ 2281)(2970).

(3) صحيح البخاري (3098، 2873، 2912، 2739، 4461).

(4) صحيح البخاري (3096، 6451)، صحيح مسلم (2973).

(5) صحيح البخاري (6458).

(6) سنن الترمذي (2360).

(7) سكرجة: هي قصاع صغار يؤكل فيها، وليست بعربية.

(8) صحيح البخاري (6450)(5386).

(9) صحيح البخاري (6456)، صحيح مسلم (2082).

(10) صحيح البخاري (1044)، صحيح مسلم (901).

وفي حديث المغيرة: {صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتفخت قدماه}.

وفي رواية: {كان يصلي حتى تَرِم قدماه؛ فقيل له: أتكلّفُ هذا وقد غُفر لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبدًا شكورًا؟}[1].

وقالت عائشة: {كان عملُ رسول الله صلى الله عليه وسلم دِيمةً، وأيكم يطيق ما كان يطيق؟!}[2].

وقالت: {كان يصوم حتى نقول: لا يفطر، ويفطر حتى نقول: لا يصوم}.

وقالت: {كنت لا تشاء أن تراه من الليل مصليًا إلا رأيته مُصليًا، ولا نائمًا إلا رأيته نائمًا}.

وقال عوف بن مالك: {كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلةً فاستاك ثم توضأ، ثم قام يصلي، فقمتُ معه، فبدأ فاستفتح البقرة، فلا يمر بآية رحمةٍ إلا وقف فسأل، ولا يمر بآيةِ عذابٍ إلا وقف فتعوذ، ثم ركع، فمكث بقدر قيامه، يقول: سبحان ذي الجبروت والملكوت والعظمة، ثم سجد وقال مثل ذلك؛ ثم قرأ آل عمران، ثم سورة سورة، يفعلُ مثل ذلك}[3].

وعن حُذيفة مثله[4]، وقال: {سجد نحوًا من قيامه، وجلس بين السجدتين نحوًا منه، وقال: حتى قرأ البقرة، وآل عمران، والنساء والمائدة}.

وعن عائشة: {قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بآية من القرآن ليلةً}.

وعن عبد الله بن الشّخّير: {أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي، ولجوفه أزيزٌ كأزيز المرجل}[5].

وقال عليه السلام: {إني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة}.

---

(1) صحيح البخاري (6471)، صحيح مسلم (2819).

(2) صحيح البخاري (1987، 6466)، صحيح مسلم (783).

(3) سنن أبي داود (873).

(4) صحيح مسلم (772)، سنن أبي داود (871).

(5) سنن أبي داود (904)، سنن النسائي (1213).

البابُ الثالث

فيما ورد من صحيح الأخبار ومشهورها بعظيم قدره عند ربه ومنزلته، وما خصه به في الدارين من كرامته صلى الله عليه وسلم

لا خلاف أنه أكرم البشر، وسيد ولد آدم، وأفضل الناس منزلة عند الله وأعلاهم درجة، وأقربهم زلفى.

واعلم أن الأحاديث الواردة في ذلك كثيرة جدًا، وقد اقتصرنا منها على صحيحها ومنتشرها، وحصرنا معاني ما ورد منها في اثني عشر فصلًا:

الفصل الأول: فيما ورد من ذكر مكانته عند ربه، والاصطفاء، ورفعة الذكر، والتفضيل وسيادة ولد آدم، وما خصه به في الدنيا من مزايا الرتب وبركة اسمه الطيب:

عن واثلة بن الأسقع قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل. واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشًا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم}[1].

ومن حديث أنس: {أنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر}[2].

قال صلى الله عليه وسلم: {أعطيت خمسًا -وفي رواية ستًا- لم يعطهن نبي قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجُعِلت لي الأرضُ مسجدًا وطهورًا، وأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم، ولم تحل لنبي قبلي، وبعثت إلى الناس كافة، وأعطيت الشفاعة}.

وفي رواية: {وقيل لي: سل تعطه}.

وعن أبي هريرة أنه قال عليه الصلاة والسلام: {نصرت بالرعب، وأوتيت جوامعَ الكلم، وبينا أنا نائم إذ جيء بمفاتيح خزائن الأرض فوُضِعت في يديّ}[3].

وفي رواية: {وختم بي النبيون}.

وعن عقبة بن عامر أنه قال: قال عليه السلام: {إني فرطٌ لكم، وأنا شهيد عليكم وإنّي والله لأنظر إلى حوضي الآن، وإني قد أعطيت مفاتيح خزائن الأرض. وإني - والله- ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، ولكني أخاف عليكم أن

---

(1) صحيح مسلم (2276).

(2) سنن الترمذي (3610)، وقال: (هذا حديث حسن غريب).

(3) صحيح مسلم (523).

تنافسوا فيها}[1].

وعن أبي هريرة، عنه عليه السلام: {ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيًا أوحى الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة}[2].

معنى هذا عند المحققين: بقاء معجزته ما بقيت الدنيا، وسائر معجزات الأنبياء ذهبت للحين، ولم يشاهدها إلا الحاضِرُ لها، ومعجزةُ القرآن يقف عليها قرن بعد قرن عيانا لا خبرًا إلى القيامة.

وعن العرباض بن سارية: {سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إني عبد الله وخاتم النبيين؛ وإنّ آدم لمنجدل في طينته، وعدةُ[3] أبي إبراهيم، وبشارة عيسى بن مريم}[4].

الفصل الثاني: في تفضيله بما تضمنته كرامة الإسراء من المناجاة والرؤية، وإمامة الأنبياء والعُروج به إلى سِدْرة المنتهى، وما رأى من آيات ربه الكبرى:

ومن خصائصه -عليه السلام- قصة الإسراء وما انطوت عليه من درجات الرفْعة ممّا نبه عليه الكتاب العزيزُ، وشرحته صِحَاحُ الأخبار؛ قال الله تعالى: ((سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)) [الإسراء:1].

وقال تعالى: ((وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى)) [النجم:1-18].

فلا خلاف بين المسلمين في صحة الإسراء به عليه السلام؛ إذ هو نص القرآن، وجاءت بتفصيله، وشرح عجائبه، وخواص نبينا محمد عليه السلام فيه أحاديثُ كثيرة منتشرة، رأينا أن نقدم أكملها، ونشير إلى زيادة من غيره يجب ذكرها:

فمنها حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: {أتيت بالبرُاق، وهو دابّة أبيض طويل، فوق الحمار، ودون البغل، يضع حافرهُ عند منتهى طرفه فركبتُه حتى أتيتُ بيت المقدس، فربطتُه بالحلْقة التي يربط بها الأنبياء، ثم دخلتُ المسجد فصلّيت فيه ركعتين، ثم خرجت، فجاءني جبريل بإناءٍ من خمر وإناءٍ من لبن، فاخترتُ اللبن، فقال جبريل: اخترت الفطرة.

ثم عَرج بنا إلى السماء، فاستفتح جبريل، فقيل: منْ أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث

---

(1) صحيح البخاري (1344، 3596، 6426، 4085)، صحيح مسلم (2296).

(2) صحيح البخاري (4981)، صحيح مسلم (152).

(3) عدة: بكسر العين المهملة أي: وعد.

(4) مسند أحمد (4/ 127)، المستدرك (2/ 418).

إليه؟ قال: قد بُعثَ إليه، ففُتح لنا، فإذا أنا بآدم صلى الله عليه وسلم، فرحّب بي، ودعا لي بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بُعث إليه. ففُتح لنا، فإذا أنا بابني الخالة: عيسى بن مريم، ويحيى بن زكريا صلى الله عليهما؛ فرحّبا بي، ودعوا لي بخير.

ثم عَرَج بنا إلى السماء الثالثة، فذكر مثل الأول، ففُتح لنا، فإذا أنا بيوسف صلى الله عليه وسلم، وإذا هو قد أعطِي شطر الحُسن، فرحّب بي، ودعا لي بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة، وذكر مثله، فإذا أنا بإدريس، فرحّب بي، ودعا لي بخير، قال الله تعالى: ((وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا)) [مريم:57].

ثم عَرج بنا إلى السماء الخامسة، فذكر مثله، فإذا أنا بهارون، فرحّب بي، ودعا لي بخير.

ثم عَرج بنا إلى السماء السادسة، فذكر مثله، فإذا أنا بموسى، فرحّب بي، ودعا لي بخير.

ثم عرجَ بنا إلى السماء السابعة، فذكر مثله، فإذا أنا بإبراهيم مُسندًا ظهرَه إلى البيت المعمور، وإذا هو يدْخلُه كل يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون إليه.

ثم ذهب بي إلى سِدرة المُنتهى، وإذا ورقُها كآذان الفيلة، وإذا ثمرُها كالقِلاَل.

قال: فلما غَشيها من أمر الله ما غشِيَ تغيرت، فما أحدٌ مِنْ خلقِ الله يستطيع أنْ ينعتها من حُسْنها؛ فأوحى الله إلي ما أوْحى، ففرض علي خمسين صلاة في كل يوم وليلة، فنزلتُ إلى موسى، فقال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة. قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف؛ فإن أمتك لا يُطيقون ذلك؛ فإني قد بلوْت بني إسرائيل وخبرتهم.

قال: فرجعت إلى ربي، فقلت: يا رب! خفّف عن أُمتي. فحطّ عني خمسًا، فرجعتُ إلى موسى، فقلت: حطّ عني خمسًا، قال: إن أمتك لا يطيقون ذلك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف. قال: فلم أزل أرجعُ بين ربي تعالى وبين موسى حتى قال: يا محمد! إنهنّ خمسُ صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشرٌ، فتلك خمسون صلاة، ومن هم بحسنةٍ فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتِبت له عشرًا. ومن همّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئًا، فإن عملها كتبت سيئة واحدة.

قال: فنزلت حتى انتهيتُ إلى موسى، فأخبرته، فقال: ارجع إلى ربّك فاسأله التخفيف.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فقلت: قد رجعتُ إلى ربي حتى استحييتُ منه}[1].

وقد وقعتْ في حديث الإسراء، زياداتٌ نذكرُ منها نكتًا مفيدة في غرضنا: منها في حديث ابن شهاب، وفيه: قول كل نبيٌ له: {مرحبًا بالنبي الصالح، والأخ الصالح، إلا آدم وإبراهيم فقالا له: والابن الصالح}.

وعن ابن عباس: {ثم عرج بي حتى ظهرت بمستوى أسمعُ فيه صريف الأقلام}[2].

---

(1) صحيح مسلم (162).

(2) صحيح مسلم (163) عن ابن عباس، ضمن حديث أبي ذر.

وعن أنس: {ثم انطلق بي حتى أتيتُ سدْرة المنتهى، فغشيها ألوانٌ لا أدري ما هي؟ قال: ثم أدخلت الجنة}.

وفي حديث مالك بن صعصعة: {فلما جاوزته -يعني : موسى- بكى، فنودي: ما يبكيك؟ قال: هذا غلامٌ بعثته بعدي يدخل من أمته الجنة أكثر مما يدخل من أمتي}.

وفي حديث ابن مسعود: {وانتهي بي إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السادسة، إليها ينتهي ما يعرج به من الأرض فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبطُ من فوقها فيقبض منها، قال: ((إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى)) [النجم:16]، قال: فراشٌ من ذهب}.

فصـل: [في ذكر تفضيله في القيامة بخصوص الكرامة]

عن أبي سعيد؛ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {أنا سيّد ولد آدم يوم القيامة، وبيدي لواءُ الحمد ولا فخر، وما نبيّ يومئذٍ، آدمُ فمنْ سِواه، إلا تحت لوائي؛ وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر}[1].

وعن أبي هريرة، عنه صلى الله عليه وسلم: {أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع، وأول مشفع}[2].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: {أنا حاملُ لواء الحمد يوم القيامة ولا فخْر، وأنا أوّلُ شافعٍ، وأنا أول مشفّع، ولا فخْر، وأنا أولُ من يحرّك حلق الجنةِ، فيُفتح لي فأدخلها ومعي فقراءُ المؤمنين ولا فخر؛ وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخْر} .

وعن أنس: {أنا أوّل الناس يشفع في الجنة، وأنا أكثر الناس تبعًا}[3].

وقوله: {أنا سيّد الناس يوم القيامة}: هو سيّدهم في الدنيا، ويوم القيامة، ولكن أشار صلى الله عليه وسلم لانفراده فيه بالسّؤددِ والشفاعة دون غيره؛ إذ لجأ الناسُ إليه في ذلك، فلم يجدوا سِواه، والسّيد: هو الذي يلجأ الناس إليه في حوائجهم، فكان حينئذ سيّدًا منفردًا من بين البشر، لم يزاحمه أحد في ذلك، ولا ادّعاه، كما قال تعالى: ((لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ)) [غافر:16]، والملك له تعالى في الدنيا والآخرة، لكن في الآخرة انقطعتْ دعوى المدعي لذلك في الدنيا، وكذلك لجأ إلى محمد صلى الله عليه وسلم جميع الناس في الشفاعة، فكان سّيدهم في الأخرى دون دعوى.

وعن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {آتي باب الجنة يوم القيامة، فأستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد. فيقول: بك أمرت ألا أفتحَ لأحدٍ قبلك}[4].

وعن عبد الله بن عمْرو: قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {حوضي مسيرة شهر، وزواياه سواءٌ ، وماؤه

---

(1) سنن الترمذي (3615)، وقال: (حسنٌ صحيح).

(2) صحيح مسلم (2278).

(3) صحيح مسلم (196).

(4) صحيح مسلم (197).

أبيض من الورق، وريحه أطيب من المسك، وكيزانُه كنجوم السماء؛ من شرِب منه لم يظْمأْ أبدًا}[1].

وعن أبي ذرّ قال: {يشخُبُ فيه ميزابان من الجنة}[2].

وعن ثوبان مثلُه، وقال: {أحدهما من ذهب، والآخر من ورِقٍ}.

فصـل: [في تفضيله بالمحبة والخُلة]

عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: {لو كنت متخذًا خليلًا غيْر ربّي لاتخذتُ أبا بكر}[3].

وفي حديث آخر: {وإن صاحبكم خليل الله}.

ومن طريق عبد الله بن مسعود: {وقد اتخذ الله صاحبكم خليلًا}[4].

فصـل: [في تفضيله بالشفاعة والمقام المحمود]

قال الله تعالى: ((عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا)) [الإسراء:79].

عن ابن عمر قال: (إن الناسَ يصيرون يوم القيامة جُثى، كل أمة تتبع نبيها، يقولون: يا فلان! اشفع لنا، يا فلان! اشفع لنا، حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فذلك يوم يبعثه الله المقامَ المحمود)[5].

وعن أبي هريرة: سُئل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم - يعني: قوله: ((عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا)) [الإسراء:79]- فقال: {هي الشفاعة}[6].

وقال قتادة: (كان أهلُ العلم يرونَ المقام المحمود هو شفاعتُه يوم القيامة).

عن أنس وأبي هريرة وغيرهما، دخل حديثُ بعضهم في حديث بعض: قال صلى الله عليه وسلم: {يجمعُ الله الأولين والآخرين يوم القيامة فيهتمّون- أو قال: فيُلهَمُون- فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا}[7]، وفي رواية: {ماج الناسُ بعضهم في بعض}.

وفي رواية أبي هريرة: {وتدنو الشمس، فيبلغ الناس من الغمّ ما لا يُطيقون ولا يحتملون؛ فيقولون: ألا تنظرون من يشفع لكم؟ فيأتون آدم فيقولون: أنتَ آدمُ أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك مِنْ رُوحه، وأسكنك جنّته، وأسجدَ لك ملائكَته، وعلمك أسماء كلّ شيء، اشْفَع لنا عند ربك حتى يرُيحنا منْ مكاننا؛ ألا ترى ما نحن فيه؟

فيقول: إن ربي غضبَ اليوم غضبًا لم يغضب مثله، ولا يغضب بعده مثله، ونهاني عن الشجرةِ فعصيتُ، نفسي!

---

(1) صحيح البخاري (6579)، صحيح مسلم (2292).

(2) صحيح مسلم (2300).

(3) صحيح البخاري (461، 3904)، صحيح مسلم (2382).

(4) صحيح مسلم (2383).

(5) صحيح البخاري (4718).

(6) مسند أحمد (2/ 444)(9733).

(7) صحيح البخاري (3340، 3361، 4712)، صحيح مسلم (194).

نفسي! اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح.

فيأتون نوحًا فيقولون: أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وسماك الله عبدًا شكورًا، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما بلغنا؟ ألا تشفع لنا إلى ربك؟ فيقول: إن ربي غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله، نفسي! نفسي! قد كانت لي دعوةٌ دعوتها على قومي، اذهبوا إلى غيري. اذهبوا إلى إبراهيم؛ فإنه خليل الله.

فيأتون إبراهيم، فيقولون: أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ فيقول: إنّ ربي قد غضب اليوم غضبًا... فذكر مثْله، ويذكر ثلاث كلمات كذبهُنّ. نفسي! نفسي! لستُ لها، ولكن عليكم بموسى؛ فإنه كليم الله.

فيأتون موسى، فيقول: لستُ لها، ويذكر خطيئته التي أصاب، وقتْله النفس، نفسي! نفسي! ولكن عليكم بعيسى؛ فإنه روحُ الله وكلمته.

فيأتون عيسى، فيقول: لست لها، ولكن عليكم بمحمد، عبدٍ غفر اللهُ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. فأوتى، فأقول: أنا لها. فأنطلِق فأستأذن على ربّي، فيؤذن لي، فإذا رأيتُه وقعتُ ساجدًا}.

وفي رواية: {فآتي تحت العرش، فأخر ساجدًا}.

وفي رواية: {فأقوم بين يديه، فأحمده بمحامدَ لا أقدر عليها إلا أن يُلهمنيها الله}.

وفي رواية: {فيفتح الله علي من محامدِه، وحُسْن الثناء عليه شيئًا لم يفتحه على أحدٍ قبلي}.

وفي رواية أبي هريرة: {فيقال: يا محمد! ارفع رأسك، سل تعطه، واشفع تشفع؛ فأرفع رأسي، فأقول: يا رب! أمتي. يا رب! أمتي. فيقول: أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاءُ الناس فيما سوى ذلك من الأبواب}.

وفي رواية أنس: {ثم أخر ساجدًا، فيقال لي: يا محمد! ارفع رأسك، وقل يُسمع لك، واشفع تشفع، وسل تعطه. فأقول: يا رب! أمتي أمتي. فيقال: انطلق، فمن كان في قلبه مثقال حبة من برة أو شعيرة من إيمان فأخرِجه، فأنطلق فأفْعَل. ثم أرجعُ إلى ربي، فأحمده بتلك المحامد} وذكر مثل الأول، وقال فيه: {مثقال حبةٍ من خردل. قال: فأفعل، ثم أرجع...} وذكر مثل ما تقدم، وقال فيه: {من كان في قلبه أدنى أدنى أدنى من مثقال حبة من خردل؛ فأفعل}.

وذكر في المرة الرابعة: {فيقال لي: ارفع رأسك، وقل تسمع، واشفع تشفع، وسل تعطه. فأقول: يا رب! ائذن لي فيمن قال: لا إله إلا الله. فيقول: ليس ذلك إليك.

ولكن وعزتي وكبريائي وعظمتي وجبريائي لأخرجن من النار من قال: لا إله إلا الله}.

وفي رواية: {فأقول: يا رب! ما بقي في النار إلا من حبسه القرآن}، أي: وجب عليه الخلود.

فقد اجتمع من اختلاف ألفاظ هذه الآثار أن شفاعته صلى الله عليه وسلم، ومقامه المحمود من أول الشفاعات إلى آخرها، من حين يجتمع الناس للحشر، وتضيق بهم الحناجرُ، ويبلغ منهم العرقُ والشمس والوقوفُ مبلغه، وذلك قبل

الحساب، فيشفع حينئذٍ لإراحة الناس من الموقف، ثم يوضع الصراط، ويحاسب الناس.

فيشفع في تعجيل من لا حساب عليه من أمته إلى الجنة، ثم يشفع فيمن وجب عليه العذابُ، ودخل النار منهم، ثم فيمن قال: لا إله إلا الله. وليس هذا لِسواه صلى الله عليه وسلم، وقد صح أنه قال: {لكلّ نبي دعوة دعا بها، واختبأت دعوتي شفاعةً لأمتي يوم القيامة}[1].

قال أهل العلم: معناه دعوة أعْلِمَ أنها تستجابُ لهم، ويبلغ فيها مرغوبُهم، وإلا فكم لكل نبي منهم من دعوةٍ مستجابة، ولنبيّنا صلى الله عليه وسلم منها ما لا يُعدُّ؛ لكن حالهم عند الدعاءِ بها بين الرجاء والخوف، وضُمنتْ لهم إجابةُ دعوةٍ فيما شاءوه، يدعونَ بها على يقينٍ من الإجابة.

وقد قال محمد بن زِياد، وأبو صالح، عن أبي هريرة في هذا الحديث: {لكل نبي دعوةٌ دعا بها في أمته، فاستجيب له؛ وأنا أريد أن أدّخر، دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة}[2].

وفي رواية أبي صالح: {لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته}.

فتكون هذه الدعوةُ المذكورة مخصوصةً بالأُمة مضمونة الإجابة، وإلا فقد أخبر صلى الله عليه وسلم أنه سأل لأمته أشياء من أمور الدين والدنيا وأعطِي بعضها، ومنع بعضَها، وادّخر لهم هذه الدعوةَ ليوم الفاقة، وخاتمة المحن، وعظيم السؤال والرغبة، جزاه الله أحسنَ ما جزى نبيًّا عن أمته، وصلى الله عليه وسلم كثيرًا.

فصـل: [في تفضيله في الجنة بالوسيلة والدرجة الرفيعة والكوثر والفضيلة]

عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: {إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا عليّ؛ فإنه من صلّى عليّ مرة صلى الله عليه عشرًا؛ ثم سلوا الله لي الوسيلة؛ فإنها منزلة في الجنه لا تنبغي إلاّ لعبد من عباد الله؛ وأرجو أن أكون أنا هو. فمن سأل الله لي الوسيلة حلت له الشفاعة}[3].

وعن أنس: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {بينا أنا أسير في الجنة إذ عرض لي نهرٌ حافتاه قبابُ اللؤلؤ. قلت لجبريل: ما هذا؟ قال: هذا الكوثرُ الذي أعطاكهُ الله. قال: ثم ضرب بيده إلى طينه، فاستخرج مِسْكًا}[4].

---

(1) صحيح البخاري (6305)، صحيح مسلم (200).

(2) صحيح مسلم (198).

(3) صحيح مسلم (384).

(4) صحيح البخاري (6581، 4964).

البابُ الرّابع

فيما أظهره الله تعالى على يديه من المعجزات وشرّفه به من الخصائص والكرامات

وإذا تأمل المتأمل المنْصف ما قدمناه من جميل أثره، وحمِيدِ سيره، وبراعةِ علمه، ورجاحة عقله وحلمه، وجُملةِ كماله، وجميع خِصاله، وشاهد حاله، وصواب مقاله؛ لم يمتر في صحة نبوّته، وصدق دعْوته، وقد كفى هذا غير واحدٍ في إسلامه والإيمان به.

روى الترمذي أن عبد الله بن سلام قال: {لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة جئته لأنظر إليه؛ فلما استبنت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب}.

وعن أبي رمثة التيمي قال: {أتيتُ النبي صلى الله عليه وسلم، ومعي ابنٌ لي، فلما رأَيتُه قلت: هذا نبيُّ الله}.

ورَوى مسلم وغيره أن ضمادًا لمّا وفد عليه قال له النبي صلى الله عليه وسلم: {إن الحمد لله، نحمدهُ ونستعينه، من يهدِه اللهُ فلا مُضل له؛ ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله[1]، فقال له: أعِدْ عليّ كلماتك هؤلاء؛ فلقد بلغنَ قاموس البحر[2]، هات يدك أبايعك}.

وقال جامع بن شداد: {كان رجل منا يُقالُ له: طارق، فأخبر أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة، فقال: هل معكم شيء تبيعونه؟ قلنا: هذا البعير. قال: بكم؟ قلنا: بكذا وكذا وسقًا من تمر، فأخذ بخطامه، وسار إلى المدينة؛ فقلنا: بعْنا من رجل لا ندري من هو؛ ومعنا ظعِينة ، فقالت: أنا ضامنة لثمن البعير؛ رأيت وجْهَ رجلٍ مثلَ القمرِ ليلة البدر لا يخِيس[3] فيكم.

فأصبحنا، فجاءَ رجلٌ بتمر فقال: أنا رسولُ رسول الله صلى الله عليه وسلم إليكم، يأمرُكم أن تأكلوا من هذا التمر، وتكتالوا حتى تستوفوا. ففعلنا}.

وفي خبر الجُلَنْدي مَلكِ عُمَان أنه لما بلغه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوه إلى الإسلام قال: {والله! لقد دلّني على صدق هذا النبي الأمي أنه لا يأمر بخير إلاّ كان أولَ آخذ به، ولا ينهى عن شيء إلاّ كان أول تارك له، وأنه يغلبُ فلا يبطر، ويُغلبُ فلا يضجرُ، ويفِي بالعهد، وينجز الموعود، وأشهدُ أنه نبيّ}.

قال ابن رواحة:

لو لم تكنْ فيه آيات مبينةٌ ... لكان منظرُه ينبيك بالخبَر

فصـل: [في انشقاق القمر]

قال الله تعالى: ((اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ)) [القمر:1-2].

---

(1) صحيح مسلم (868).

(2) قاموس البحر: قال أبو عبيدة: قاموس البحر: وسطه.

(3) يخيس: يغدر.

أخبر تعالى بوقوع انشقاقه بلفظ الماضي، وإعراض الكفرةِ عن آياته؛ وأجمع المفسرون وأهل السنة على وقوعه.

عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: {انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقتين: فرقةً فوق الجبل، وفرقة دونه؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اشهدوا}[1].

وفي رواية: {ونحن مع النبي صلى الله عليه وسلم}.

وفي رواية: {ونحن بمنىً}.

وزادَ في رواية: {فقال كفّار قريش: سحَركم ابن أبي كبشة! فقال رجل منهم: إن محمدًا إن كان سحر القمر فإنه لا يبلغ من سحره أن يسحر الأرضين كلها، فاسألوا من يأتيكم من بلد آخر: هل رأوا هذا؟ فسألوهم فأخبروهم أنهم رأوا مثل ذلك}.

فصـل: [في نبع الماء من بين أصابعه وتكثيره ببركته]

الأحاديث في هذا كثيرةٌ جدًا.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه: {رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحانت صلاة العصر، فالتمس الناسُ الوضوء فلم يجدوه، فأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم بوضوء، فوضع رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في ذلك الإناء يده، وأمر الناس أن يتوضئوا منه، قال: فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه، فتوضأ، حتى توضئوا من عند آخرهم.

قيل: كم كنتم؟ قال: كنا زهاء ثلاثمائة}[2].

وفي الصحيح عن ابن مسعود قال: {بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليس معنا ماء، فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: اطلبوا من معه فضلُ ماء، فأتي بماء فصبهُ في إناء، ثم وضع كفه فيه، فجعل الماء ينبعُ من بين أصابع رسول الله صلى الله عليه وسلم}[3].

وفي الصحيح عن جابر رضي الله عنه قال[4]: {عطِشَ الناس يوم الحديبية، ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم بين يديه ركوةٌ، فتوضأ منها، وأقبل الناس نحوه؛ وقالوا: ليس عندنا ماء إلا ما في ركوتك؛ فوضع النبي صلى الله عليه وسلم يدهُ في الركوة، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العُيُون.

قيل: كم كنتم؟ قال: لو كنا مائة ألفٍ لكفانا؛ كنا خمس عشرة مائة}.

ومثلُ هذا في هذه المواطن الحَفِلَة والجموع الكثيرة، لا تتطرق التهمةَ إلى المحدث به؛ لأنهم كانوا أسرع شيء إلى تكذيبه؛ لما جبلت عليه النفوس من ذلك، ولأنهم كانوا ممن لا يسكت على باطل؛ فهؤلاء قد رووا هذا وأشاعوه، ونسبوا حضور الجمّاء الغفير له، ولم ينكر أحد من الناس عليهم ما حدّثوا به عنهم أنهم فعلوا وشاهدوه، فصار كتصديق جميعهم

---

(1) صحيح البخاري (3636، 4864)، صحيح مسلم (2800).

(2) صحيح البخاري (169، 200، 3572)، صحيح مسلم (2279).

(3) صحيح البخاري (3579).

(4) صحيح البخاري (3576).

له.

فصـل: [في ذكر معجزته في غزوة تبوك]

ومما يُشبه هذا من معجزاته تفجيرُ الماء ببركته، وانبعاثه بمسّه ودعوته؛ فروى مالك في الموطأ عن معاذ بن جبل في قصة غزوة تبوك، وأنهم وردوا العين وهي تبضّ بشيء من ماء مثل الشراك، فغرفوا من العين بأيديهم حتى اجتمع في شيء، ثم غسل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه وجهه ويديه، وأعاده فيها، فجرت بماء كثير، فاستقى الناس[1].

ثم قال: {يوشك -يا معاذ- إن طالت بك حياة أن ترى ما ها هنا قد ملُئ جنانًا}.

فصـل: [تكثير الطعام ببركته صلى الله عليه وسلم]

ومن معجزاته تكثير الطعام ببركته ودُعائه، عن جابر: {أن رجلًا أتى النبي صلى الله عليه وسلم يستطعِمه، فأطعمه شطْر وسق شعير؛ فما زال يأكل منه وامرأتُه وضيفُه حتى كاله، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم، فأخبره، فقال: لو لم تكِلهُ لأكلتم منه، ولقام بكم}[2].

ومن ذلك حديث أبي طلحة المشهور، وفيه إطعامُه صلى الله عليه وسلم ثمانين أو سبعين رجلًا من أقراص من شعِير جاء بها أنس تحت إبطِه، فأمر بها ففتّتْ، وقال فيها ما شاء الله أن يقول[3].

وحديث جابر في إطعامه صلى الله عليه وسلم يوم الخندق ألف رجُل من صاع شعير وعناقٍ، وقال جابر: {فأقسم بالله لأكلوا حتى تركُوه وانحرفوا، وإن بُرمتنا لتغِطّ كما هي، وإنّ عجيننا ليُخبز}[4]، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بصقَ في العجين والبُرمة، وباركَ.

ومن ذلك حديث عبد الرحمن بن أبي بكر: {كُنّا مع النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثين ومائة..- وذكر في الحديث أنه عُجن صاعٌ من طعام، وصُنعت شاة، فشوي سواد بطنِها- قال: وأيم الله! ما مِن الثلاثين ومائةٍ إلا وقد حزّ له حُزة من سواد بطنها، ثم جعل منها قصعتين، فأكلنا منهما أجمعون، وفضَل في القصعتين، فحملتُه على البعِير}[5].

ومنه أيضًا حديث أبي هريرة حين أصابه الجوع، فاستتبعهُ النبي صلى الله عليه وسلم، فوجد لبنًا في قدح قد أُهدِي إليه، وأمره أن يدعو أهل الصّفة، قال: فقلتُ: ما هذا اللبنُ فيهم؟ كنت أحقّ أن أصِيبَ منه شرْبة أتقوّى بها، فدعوتُهم، وذكر أمْر النبي صلى الله عليه وسلم له أن يسقيهم، قال: {فجعلتُ أُعطي الرجل فيشربُ حتى يَرْوى، ثم يأخذه الآخر حتى رَوِيَ جميعُهم، قال: فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم القدح، وقال: بقيت أنا وأنت، اقعد فاشرب، فشربتُ، ثم قال: اشرب. وما زال يقولها وأشرب حتى قلت: لا، والذي بعثك بالحق! ما أجدُ له مسلكًا ؛ فأخذ القدح فحمِد الله وسمّى

---

(1) صحيح مسلم (4/ 1784)(706).

(2) صحيح مسلم (2281).

(3) صحيح البخاري (3578، 5381، 6688)، صحيح مسلم (2040).

(4) صحيح البخاري (4102).

(5) صحيح مسلم (2056).

وشرب الفضلة}.

وفي حديث أنس: {تزوّج رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، فصنعَتْ أمّي أمّ سليْم حيْسًا، فجعلتْه في تورٍ، فذهبتُ به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقال: ضعهُ، وادْعُ لي فلانًا وفلانًا، ومن لقيتَ، فدعوتهم، ولم أدعْ أحدًا لقِيتُه إلاّ دعوتُه، وذكر أنهم كانوا زُهاء ثلاثمائة حتى ملئُوا الصّفّة والحُجْرة، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: تحلّقوا عشرة عشرة، ووضع النبي صلى الله عليه وسلم يده على الطعام، فدعا فيه، وقال ما شاء اللهُ أن يقول؛ فأكلوا حتى شبِعُوا كلّهم، فقال لي: ارفع، فما أدري حين وُضِعت كانت أكثر أم حين رُفعتْ!}[1].

فصـل: [في كلام الشجرة وشهادتها له بالنبوة وإجابتها دعوته]

في الصحيح في حديث جابر بن عبد الله الطويل: {ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقضي حاجته، فلم ير شيئًا يستتر به، فإذا بشجرتين في شاطئ الوادي، فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى إحداهما، فأخذ بغُصن من أغصانها، فقال: انقادي عليّ بإذن الله، فانقادتْ معه كالبعير المخشوش[2] الذي يُصانعُ قائده}.

وذكر أنه فعل بالأخرى مثل ذلك، حتى إذا كان بالمنصف[3] بينهما قال: {التئما عليّ بإذن الله. فالتأمتا}[4].

وعن ابن عباس[5] رضي الله عنهما أنه صلى الله عليه وسلم قال لأعرابيّ: {أرأيتَ إن دعوت هذا العِذق من هذه النخلة أتشهد أني رسول الله؟ قال: نعم، فدعاه فجعل ينقُز حتى أتاه. فقال: ارجع فعاد إلى مكانه}.

وخرّجه الترمذي، وقال: هذا حديث صحيح.

فصـل: [في قصة حَنين الجذع]

ويعضد هذه الأخبار حديث حنين الجذع، والخبر به متواتر، قد خرجه أهل الصحيح، فعن جابر بن عبد الله قال: {كان المسجدُ مسقوفًا على جذوع نخل؛ فكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا خطب يقوم إلى جذع منها، فلما صُنع له المِنبر سمعنا لذلك الجذع صوتًا كصوت العِشَار}[6].

وفي رواية أنس: {حتى ارتجّ المسجد بخُواره}[7].

وفي رواية سهل: {وكثر بكاء الناس}.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: {إن هذا بكى لما فقد من الذكر}.

---

(1) صحيح البخاري (5162)، صحيح مسلم (1428).

(2) البعير المخشوش: البعير يجعل في أنفه الخشاش، هو عود يربط عليه حبل ويدخل في عظم أنف البعير لينقاد.

(3) المَنصف: نصف الطريق.

(4) صحيح مسلم (4/ 2306)(3012).

(5) دلائل النبوة للبيهقي (6/ 15).

(6) العشار: النوق الحوامل.

(7) الخوار: صوت البقر والشاة.

وفي رواية: {والذي نفسي بيده! لو لم ألتزمه لم يزل هكذا إلى يوم القيامة}.

فصـل: [سماعه التسبيح وتسليم بعض الجمادات]

عن ابن مسعود، قال: {لقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل}.

وفي غير هذه الرواية عن ابن مسعود: {كنا نأكل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الطعامَ ونحن نسمع تسبيحَه}.

وعن جابر بن سمْرة عنه صلى الله عليه وسلم: {إني لأعرف حجرًا بمكة كان يسلّم علي}.

وعن أنس: {صعد النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعُمر وعثمان أُحُدًا، فرجف بهم؛ فقال: اثبت أُحُد! فإنما عليك نبي، وصديق، وشهيدان}[1].

ومثله عن أبي هريرة[2] في حِرَاء، وزاد: {معه عليٌّ، وطلحة، والزبير، وقال: فإنما عليك نبيٌّ، أو صديق، أو شهيد}.

فصـل: [في إبراء المرضى وذوي العاهات]

قال سعد بن أبي وقاص: {إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليناولني السهم لا نصل له، فيقول: ارم به}.

وقد رمى رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذٍ عن قوسه حتى اندقّت، وأصيبت يومئذ عين قتادة- يعني ابن النعمان- حتى وقعت على وجنته، فردها رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فكانت أحسن عينيه.

وروى قصة قتادة عاصم بن عمر بن قتادة، ويزيد بن عياض بن عمر بن قتادة.

ورواها أبو سعيد الخدري عن قتادة.

وبصق على أثر سهم في وجه أبي قتادة في يوم ذي قرد، قال: (فما ضرب علي ولا قاح).

وتفل في عيني علي[3] يوم خيبر، وكان رمدًا، فأصبح بارئًا، ونفث على[4] ضربةٍ بساق سلمة بن الأكوع يوم خيبر فبرئت.

فصـل: [في إجابة دعائه صلى الله عليه وسلم]

وهذا بابٌ واسع جدًا، وإجابة دعوة النبي صلى الله عليه وسلم لجماعةٍ بما دعا لهم وعليهم متواتر على الجملةِ، معلومٌ ضرورةً.

وقد جاء في حديث حذيفة رضي الله عنه: {كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دعا لرجلٍ أدركت الدعوةُ ولده وولدَ ولدِه}.

عن أنس رضي الله عنه، قال: قالت أمي: {يا رسول الله، خادمُك أنس، ادعُ الله له. قال: اللهم أكثر ماله وولده،

---

(1) صحيح البخاري (3675).

(2) صحيح مسلم (2417).

(3) صحيح مسلم (2404).

(4) صحيح البخاري (4206).

وبارك له فيما آتيته}[1].

ومن رواية عكرمة: قال أنس: {فوالله، إنّ مالي لكثير؛ وإنّ ولدي وولد ولدي ليعادّون اليوم على نحو المائة}.

وفي رواية: {وما أعلم أحدًا أصاب من رخاء العيش ما أصبت، ولقد دفنت بيديّ هاتين مائة من ولدي، لا أقول سِقطًا ولا ولد ولدٍ}.

ودعا لسعد بن أبي وقّاص[2] رضي الله عنه أنْ يجيبَ اللهُ دعوته، فما دعا على أحد إلا استُجيبَ له.

ودعا بعز الإسلام بعُمر رضي الله عنه أو بأبي جهل، فاستُجيب له في عُمر.

قال ابن مسعود رضى الله عنه: (ما زلنا أعزّة منذ أسلم عُمر).

وأصاب الناسَ في بعض مغازيه عطشٌ، فسأله عُمر الدعاءَ؛ فدعا؛ فجاءت سحابةٌ، فسقتهم حاجتهم، ثم أقْلعتْ.

ودعا في الاستسقاء، فسُقوا، ثم شكوا إليه المطر؛ فدعا، فصحوْا.

ودعا لابن عباس: {اللهم! فقهه في الدين، وعلمه التأويل} فسمي بعد الحبر وترجمان القرآن.

ودعا لعبد الله بن جعفر بالبركة في صفقة يمينه، فما اشترى شيئًا إلا ربح فيه!

ودعا بمثله لعُرْوة بن أبي الجعد؛ فكان لو اشترى التراب ربح فيه.

ودعا لأم أبي هريرة فأسلمت.

ودعا على مُضر فأقْحِطوا، حتى استعطفته قريش، فدعا لهم فسُقوا.

ودعا على كسرى حين مزق كتابه أن يمزق الله مُلكه؛ فلم تبق له باقية، ولا بقيت لفارس رياسةٌ في أقطار الدنيا.

وقال لرجل رآه يأكل بشماله: {كل بيمينك، فقال: لا أستطيعُ، فقال: لا استطعت..! فلم يرفعها إلى فيه}.

وقال لعتبة بن أبي لهب: {اللهم سلط عليه كلبًا من كلابك}، فأكله الأسد.

وفي الحديث المشهور عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في دعائه عليه الصلاة والسلام على قريش حين وضعوا السّلى[3] على رقبته وهو ساجد مع الفرث والدم، وسمّاهم. قال: فلقد رأيتهم قتلوا يوم بدر.

فصـل: [في كراماته وبركاته]

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: {إن أهل المدينة فزعوا مرة، فركب رسول الله صلى الله عليه وسلم فرسًا لأبي طلحة كان يبُطأ، فلما رجع قال: {وجدنا فرسك بحرًا} فكان بعد لا يُجارى}[4].

ونخس جمل جابر، وكان قد أعيا، فنشط حتى كان ما يملك زِمامه.

وفي الصحيح- عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها- أنها أخرجت جُبّة طيالسةٍ، وقالت: {كان رسول الله صلى الله

---

(1) صحيح مسلم (2481).

(2) دلائل النبوة للبيهقي (6/ 189).

(3) السلى في البهائم كالمشيمة لبني آدم.

(4) صحيح البخاري (2867).

عليه وسلم يلبسها، فنحن نغسِلها للمرضى يُستشفى بها}.

وسكب من فضل وضوئه في بئر قُباء فما نزفتْ بعد[1].

وبزق في بئر كانت في دار أنس، فلم يكن بالمدينة أعذب منها.

ومنه بركته في درور الشياه الحوائل باللبن الكثير، كقصّة شاة أم معبد، وشاة عبد الله بن مسعود[2]، وكانت لم ينز عليها فحل؛ وشاة المقداد[3].

ومسح على رأس عُمير بن سعد، وبرك، فمات وهو ابنُ ثمانين، فما شاب.

ومسح على رأس قيس بن زيد الجذامي، ودعا له، فهلك وهو ابن مائة سنة، ورأسه أبيض، وموضع كفّ النبي صلى الله عليه وسلم وما مرت يده عليه من شعره أسودُ؛ فكان يدعى الأغرّ.

وروي مثل هذه الحكاية لعمرو بن ثعلبة الجهني[4].

ونضح في وجه زينب بنت أم سلمة نضحة من ماء، فما يعرف كان في وجه امرأةٍ من الجمال ما بها.

وعن طاوس: لم يؤت النبي صلى الله عليه وسلم بأحدٍ به مسّ، فصكّ في صدره إلا ذهب.

والمس: الجنون.

وأخذ قبضة من تُراب يوم حنين[5]، ورمى بها في وجوه الكفار، وقال: {شاهت الوجوه} فانصرفوا يمسحون القذى عن أعينهم.

وأمر أبا هريرة[6] ببسط ثوبه، وغَرف بيده فيه؛ ثم أمره بضمه، ففعل؛ فما نسي شيئا بعد.

وضرب صدر جرير[7] بن عبد الله، ودعا له؛ وكان ذكر له أنه لا يثبتُ على الخيل، فصار من أفرس العرب وأثبتهم.

فصـل: [فيما أُطلع عليه من الغيوب وما يكون]

الأحاديث في هذا الباب بحرٌ لا يدرك قعرُه، ولا ينزف غمره.

وهذه المعجزة من جملة معجزاته المعلومة على القطع، الواصل إلينا خبرُها على التواتر؛ لكثرة رواتها، واتفاق معانيها على الاطلاع على الغيب:

عن حُذيفة، قال: {قام فينا رسول الله صلى الله عله وسلم مقامًا، فما ترك شيئًا يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا

---

(1) دلائل النبوة للبيهقي (6/ 136).

(2) دلائل النبوة للبيهقي (6/ 84).

(3) صحيح مسلم (2055).

(4) دلائل النبوة للبيهقي (6/ 216).

(5) صحيح مسلم (1777).

(6) صحيح البخاري (119)، صحيح مسلم (2492).

(7) صحيح البخاري (3020، 3076، 3656، 4357، 6333، 3823، 4355)، صحيح مسلم (2475).

حدّثه؛ حفِظَه من حفظه، ونسيه من نسيه، قد علمه أصحابي هؤلاء، وإنه ليكون منه الشيء، فأعرفه فأذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه؛ ثم إذا رآه عرفه[1].

ثم قال حذيفة: ما أدري، أنسي أصحابي أم تناسوه، والله! ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم من قائد فتنة إلى أن تنقضي الدنيا يبلغ من معه ثلاثمائة فصاعدًا إلا قد سماه لنا باسمه، واسم أبيه، وقبيلته}[2].

وقال أبو ذر: {لقد تركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يحرّك طائر جناحيه في السماء، إلا ذكر لنا منه علمًا}.

وقد خرج أهل الصحيح[3] والأئمة ما أعلم به أصحابه صلى الله عليه وسلم مما وعدهم به من الظهور على أعدائه، وفتح مكة، وبيت المقدس[4]، واليمن، والشام[5]، والعراق، وظهور الأمن، حتى تظعن المرأة من الحيرة إلى مكة[6]، لا تخاف إلا الله، وأن المدينة ستُغزى، وتفتح خيبر على يدي عليّ في غد يومِه، وما يفتح الله على أمته من الدنيا[7]، ويؤتون من زهرتها، وقسمتهم كنوزَ كسرى وقيصر[8]، وما يحدث بينهم من الفتون[9] والاختلاف والأهواء، وسلوك سبيل من قبلهم[10]، وافتراقهم على ثلاث وسبعين فرقة، الناجية منها واحدةٌ، وأنها ستكونُ لهم[11] أنماطٌ[12] ؛ ويغدُو أحدهم في حلةٍ[13]، ويروحُ في أخرى، وتوضع بين يديه صحفة وترفع أخرى، ويسترون بيوتهم كما تُسْترُ الكعبة، وأنهم إذا مشوا[14] المُطيطاء[15] وخدمتهم بنات فارس والروم ردّ الله بأسهم بينهم، وسلط شرارهم على خيارهم، وقتالهم الفرس، والخزر ، والروم[16]، وذهاب كسرى وفارس حتى لا كسْرى ولا فارس بعده، وذهاب قيصَر حتى لا قيصر بعْده[17]، وذكر أن

---

(1) صحيح مسلم (2891).
(2) دلائل النبوة للبيهقي (6/ 313).
(3) دلائل النبوة للبيهقي (6/ 351، 316، 317).
(4) دلائل النبوة للبيهقي (6/ 321).
(5) دلائل النبوة للبيهقي (6/ 320).
(6) صحيح البخاري (3595).
(7) صحيح مسلم (2742).
(8) دلائل النبوة للبيهقي (6/ 323).
(9) دلائل النبوة للبيهقي (6/ 387).
(10) صحيح البخاري (3456، 7320)، صحيح مسلم (2669).
(11) دلائل النبوة للبيهقي (6/ 319- 320).
(12) النمط: ضرب من البسط.
(13) دلائل النبوة للبيهقي (6/ 524).
(14) دلائل النبوة للبيهقي (6/ 525).
(15) المطيطاء: مشية فيها تبختر ومد اليدين.
(16) صحيح البخاري (2929، 3591)، صحيح مسلم (2912).
(17) صحيح مسلم (2918).

الروم ذات قرونٍ إلى آخر الدّهر، وبذهاب الأمثل فالأمثل من الناس، وتقارب الزمان، وقبض العلم[1]، وظهور الفتن، والهرج[2]، وقال: {ويل للعرب من شر قد اقترب}[3]، وأنه زويت له الأرض، فأري مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمته ما زوي له منها[4].

وكذلك كان؛ امتدّت في المشارق والمغارب مما بين أرض الهند أقصى المشرق إلى بحر طنجة، حيث لا عمارة وراءه، وذلك ما لم تملِكه أمة من الأمم، ولم تمتدّ في الجنوب ولا في الشمال مِثل ذلك.

وقال: {لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، قاهرين لعدوهم، حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك.

قيل: يا رسول الله؛ وأين هم؟ قال: ببيت المقدس}.

وأخبر بملك بني أمية[5]، واتخاذ بني أمية مال الله[٥] دُولًا ، وما ينال أهل بيته وتقتيلهم وتشريدهم؛ وقتل علي[7]، وأن أشقاهَا الذي يخضِب هذه من هذه؛ أي لحيته من رأسه وأن الفتن لا تظهر ما دام عُمر حيًّا[8]، وبمحاربة الزبير لعلي[9]، وبنباح كلاب الحوأب على بعض أزواجِه[10]، وأنه يقتل حولها قتلى كثيرٌ؛ وتنجو بعد ما كادت؛ فنبحت على عائشة عند خروجها إلى البصرة، وأن عمارًا تقتله الفئة الباغية[11]، فقتله أصحاب معاوية، وقال في قُزمان[12] وقد أبلى مع المسلمين: {إنه من أهل النار} فقتل نفسه.

وأخبر أن مسيلمة يعقرهُ الله[13]، وأن فاطمة أولُ أهلِه لحوقًا[14] به، وأنذر بالردة، وبأن الخلافة بعده ثلاثون سنة[15]، ثم تكون مُلكًا، فكانت ذلك بمدة الحسن بن علي.

وأخبر بشأن أويس القرني[16] ؛ وبأمراء يؤخرون الصلاة عن وقتها[1]، وسيكون في أمته ثلاثون كذابًا.

---

(1) صحيح البخاري (6037)، صحيح مسلم (4/ 2057)(2671).

(2) الهرج: القتل.

(3) صحيح البخاري (3346، 3598، 7059، 7135)، صحيح مسلم (2880).

(4) صحيح مسلم (2889).

(5) دلائل النبوة للبيهقي (6/ 510).

(6) دلائل النبوة للبيهقي (6/ 507، 508).

(7) مسند أحمد (4/ 263)(18347).

(8) دلائل النبوة للبيهقي (6/ 386).

(9) دلائل النبوة للبيهقي (6/ 414).

(10) دلائل النبوة للبيهقي (6/ 410).

(11) صحيح مسلم (2916).

(12) صحيح البخاري (2898، 4202)، صحيح مسلم (112).

(13) صحيح مسلم (2273).

(14) دلائل النبوة للبيهقي (7/ 164).

(15) دلائل النبوة للبيهقي (6/ 341).

(16) صحيح مسلم (2542).

وقال: {خيركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم. ثم يأتي بعد كذلك قومٌ يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السمنُ}[2].

وقال: {لا يأتي زمان إلا والذي بعده شرٌ منه}.

وقال: {هلاك أمتي على يدي أغيلمةٍ من قريش}[3].

قال أبو هريرة راويه: (لو شئتُ سمّيتهم لكم: بنو فلان، وبنو فلان).

وأخبر عن قلة الأنصار حتى يكونوا كالمِلح في الطعام[4]، فلم يزل أمرهم يتبدّدُ حتى لم يبق لهم جماعةٌ، وأنهم سيلقون بعده أثرة[5].

وأخبر بشأن الخوارج[6] وصفتهم، والمُخدج الذي فيهم، وأن سيماهم التحليق.

ويُرى رِعاء الغنم رءوس الناس[7]، والعراة الحفاة يتطاولون في البنيان، وأن تلد الأمة ربتها .

وأخبر أن قريشًا والأحزاب لا يغزونه أبدًا، وأنه هو يغزوهم، وأخبر بالموتان الذي يكون بعد فتح بيت المقدس[8]، وأنهم يغزون في البحر كالملوك على الأسرّة[9]، وأن الدين لو كان منُوطًا[10] بالثريّا لناله رجال من أبناء فارس.

وأعلم بالذي غلّ خرزًا من خرز يهود[11]، فوجدت في رحله، وبالذي غل الشّملة[12]، وحيث هي، وناقته حين ضلّت، وكيف تعلّقت بالشجرة[13] بخطامها، وبشأن كتاب حاطب إلى أهل مكة[14]، وبقضية عُمير مع صفوان[15] حين ساره وشارطه على قتل النبي صلى الله عليه وسلم؛ فلما جاء عُمير للنبي صلى الله عليه وسلم قاصدًا لقتله، وأطلعهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأمر والسر أسلم، وأخبر بالمال الذي تركه عمّه العباس رضيَ الله عنه عند أم الفضل بعد أن كتمه؛ فقال: (ما علمه غيري وغيرها، فأسلم)، وأعلم بأنه سيقتُل أبي بن خلف، وأخبر عن عُتبة بن أبي لهب أنه يأكله

---

(1) صحيح مسلم (534).

(2) صحيح مسلم (2535).

(3) صحيح البخاري (3605).

(4) صحيح البخاري (3800).

(5) صحيح البخاري (3793).

(6) البخارى (3610، 5058، 6163، 6931)، صحيح مسلم (1064).

(7) صحيح مسلم (1/ 36)(8).

(8) دلائل النبوة للبيهقي (6/ 321).

(9) صحيح البخاري (2788، 7001)، صحيح مسلم (1912).

(10) صحيح البخاري (4897)، صحيح مسلم (546).

(11) سنن أبي داود (2710)، سنن ابن ماجه (2848).

(12) صحيح البخاري (4234/ 6707)، صحيح مسلم (115).

(13) دلائل النبوة للبيهقي (59/ 4- 60).

(14) صحيح البخاري (3007)، صحيح مسلم (2494).

(15) دلائل النبوة للبيهقي (3/ 147- 148).

كلب من كلاب الله، وعن مصارع أهل بدر[1]، فكان كما قال.

وقال في الحسن: {إن ابني هذا سيد، وسيصلح الله به بين فئتين}[2]، وقال لسعدٍ: {لعلك تُخلف حتى ينتفع بك أقوام ويستضر بك آخرون}[3]، وأخبر بقتل أهل مؤتة يوم قُتلوا وبينهم مسيرة شهر أو أزيد، وبموت النجاشي يوم مات بأرضه.

وأخبر أبا ذر رضي الله عنه بعيشه وحده، وموته وحده[4].

وأخبر أن أسرع أزواجه به لحوقًا أطولهنّ يدًا[5]؛ فكانت زينب لطول يدها بالصدقة.

وقال في الذين كانوا معه على حراء: {اثبت؛ فإنما عليك نبي وصدّيق وشهيد} فقتل علي، وعمر، وعثمان، وطلحة، والزبير، وطعن سعدٌ.

وقال: {لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان دعْواهما واحدةٌ}[6].

وقال لعمر في سهيل بن عمرو[7]: {عسى أن يقوم مقامًا يسرّك يا عمر!} فكان كذلك؛ قام بمكة مقام أبي بكر يوم بلغهم موت النبي صلى الله عليه وسلم، وخطب بنحو خطبته، وثبتهم وقوى بصائرهم.

وقال لخالد حين وجّهه لأكيدر: {إنك تجده يصيد البقر}.

فوجدت هذه الأمورُ كلها في حياته وبعد موته كما قال صلى الله عليه وسلم.

إلى ما أخبر به جُلساءه من أسرارهم وبواطنهم، واطّلع عليه من أسرار المنافقين وكُفرِهم، وقولهم فيه وفي المؤمنين، حتى إنْ كان بعضهم ليقولُ لصاحبه: (اسكت، فوالله! لو لم يكن عنده من يخبره لأخبرته حجارة البطحاء).

وإعلامه بصفة السحر الذي سحره به لبيد بن الأعصم، وكونه في مُشطٍ ومشاطة، في جُفّ[8] طلع نخلة ذكرٍ، وأنه ألقي في بئر ذرْوان[9]؛ فكان كما قال، ووُجد على تلك الصفة.

وإعلامه قريشًا بأكل الأرضة ما في صحيفتهم التي تظاهروا بها على بني هاشم، وقطعوا بها رحِمهم، وأنها أبقت فيها كل اسم لله؛ فوجدوها كما قال.

ووصفه لكفار قريش بيت المقدس حين كذبوه في خبر الإسراء، ونعته إياه نعت من عرفه.

---

(1) صحيح مسلم (1779).

(2) صحيح البخاري (2704، 3746).

(3) صحيح البخاري (4409، 6373، 3936، 1295)، صحيح مسلم (1628).

(4) دلائل النبوة للبيهقي (6/ 401- 402).

(5) صحيح مسلم (2452).

(6) صحيح البخاري (3608).

(7) دلائل النبوة للبيهقي (6/ 367) عن الحسن بن محمد مرسلًا.

(8) جف: وعاء الطلع.

(9) صحيح مسلم (2189).

وأعلمهم بعيرهم التي مر عليها في طريقه؛ وأنذرهم بوقت وصولها؛ فكان كله كما قال.

إلى ما أخبر به من الحوادث التي تكون ولم يأت بعد، منها ما ظهرت مقدّماتها، كقوله: {عُمران بيت المقدس خراب يثرب، وخراب يثرب خروج الملحمة، وخروج الملحمة فتح القسطنطينية}[1].

ومن أشراط الساعة وآيات حلولها، وذكر النشر والحشر، وأخبار الأبرار والفجار، والجنة والنار، وعرصات القيامة.

وبحسب هذا الفصل أن يكون ديوانًا مُفردًا يشتمل على أجزاء وحده؛ وفيما أشرْنا إليه من نُكت الأحاديث التي ذكرنا كفاية، وأكثرها في الصحيح، وعند الأئمة.

فصـل: [في عصمة الله تعالى له من الناس وكفايته من آذاه]

قال الله تعالى: ((وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)) [المائدة:67].

وقال تعالى: ((وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)) [الطور:48].

وقال تعالى: ((أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ)) [الزمر:36].

وقال تعالى: ((إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ)) [الحجر:95].

وقال تعالى: ((وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)) [الأنفال:30].

عن عائشة رضي الله عنها، قالت: {كان النبي صلى الله عليه وسلم يحرس حتى نزلت هذه الآية: ((وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)) [المائدة:67] فأخرج رسولُ الله صلى الله عليه وسلم رأسه من القبة، فقال لهم: يأيها الناس، انصرفوا؛ فقد عصمني ربي عز وجل}[2].

وذكر ابن إسحاق أن حمالة الحطب لما بلغها نزول: ((تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)) [المسد:1]، وذِكرُها بما ذكرها الله مع زوجها من الذم، أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في المسجد ومعه أبو بكر، وفي يدها فهرٌ من الحجارة، فلما وقفت عليهما لم تر إلا أبا بكر، وأخذ الله تعالى ببصرها عن نبيه صلى الله عليه وسلم؛ فقالت: يا أبا بكر! أين صاحبك؟ فقد بلغني أنه يهجوني، والله! لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه.

ومنه العِبرة المشهورة، والكفاية التامة عندما أخافته قريش، وأجمعت على قتله وبيّتوه، فخرج عليهم من بيته، فقام على رءوسهم، وقد ضرب الله تعالى على أبصارهم، وذرّ التراب على رءوسهم، وخلص منهم.

وحمايته عن رؤيتهم له في الغار.

وقصته مع سراقة بن مالك بن جُعشم حين الهجرة[3]، وقد جعلت قريش فيه وفي أبي بكر الجعائل، فأنذِر به، فركب

---

(1) سنن أبي داود (4294).

(2) سنن الترمذي (3046) وقال: (غريب).

(3) صحيح البخاري (3615)، صحيح مسلم (2009).

فرسه واتّبعه حتى إذا قرب منه دعا عليه النبي صلى الله عليه وسلم، فساخت قوائم فرسه، فخر عنها، واستقسم بالأزلام، فخرج له ما يكره، ثم ركب ودنا حتى سمع قراءة النبي صلى الله عليه وسلم، وهو لا يلتفت، وأبو بكر رضي الله عنه يلتفت، فقال للنبي صلى الله عليه وسلم: أتينا، فقال: {لا تحزن إن الله معنا} فساخت ثانية إلى ركبتها، وخرّ عنها؛ فزجرها فنهضت ولقوائمها مثل الدخانِ، فناداهم بالأمان، فكتب له النبي صلى الله عليه وسلم أمانًا، كتبه ابن فهيرة، وقيل: أبو بكر، وأخبرهم بالأخبار، وأمره النبي صلى الله عليه وسلم ألا يترك أحدًا يلحق بهم، فانصرف يقولُ للناس: كفيتم ما هاهنا، ووقع في نفسه ظهور النبي صلى الله عليه وسلم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن أبا جهل وعد قُريشًا لئن رأى محمدًا يصلي ليطأنّ رقبته، فلما صلى النبي صلى الله عليه وسلم أعلموه، فأقبل، فلما قرُب منه ولى هاربًا ناكصًا على عقبيه، متقيًا بيديه، فسئل فقال: لما دنوت منه أشرفت على خندق مملوء نارًا كدت أهوي فيه، وأبصرت هولًا عظيمًا، وخفق أجنحة قد ملأت الأرض، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: {تلك الملائكة، لو دنا لاختطفته عضوًا عضوًا}، ثم أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم: ((كَلَّا إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى * إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى * أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى * أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى * أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى * أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى * كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ * فَلْيَدْعُ نَادِيَه * سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ * كَلَّا لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)) [العلق:6-19][1].

وروي أن شيبة بن عثمان الحجبي أدركه يوم حنين، وكان حمزة قد قتل أباه وعمه، فقال: {اليوم أدرك ثأري من محمد، فلما اختلط الناس أتاه من خلفه، ورفع سيفه ليصبه عليه؛ قال: فلما دنوت منه ارتفع إليّ شواظٌ من نار أسرع من البرق، فولّيتُ هاربًا؛ وأحسّ بي النبي صلى الله عليه وسلم فدعاني، فوضع يده على صدري، وهو أبغضُ الخلق إلي، فما رفعها إلا وهو أحبّ الخلق إليّ، وقال لي: ادنُ فقاتل، فتقدمت أمامه أضرب بسيفي وأقيه بنفسي، ولو لقيت أبي تلك الساعة لأوقعت به دونه}.

وعن فضالة بن عمرو: {أردت قتل النبي صلى الله عليه وسلم عام الفتح، وهو يطوف بالبيت، فلما دنوت منه قال: أفضالة؟ قلت: نعم. قال: ما كنت تحدث به نفسك؟ قلت: لا شيء. فضحك واستغفر لي، ووضع يده على صدري، فسكن قلبي، فوالله! ما رفعها حتى ما خلق الله شيئًا أحب إلي منه}.

ومن عصمته له تعالى أن كثيرًا من اليهود والكهنة أنذروا به، وعينوه لقُريش، وأخبروهم بسطوته بهم، وحضوهم على قتله؛ فعصمهُ الله تعالى حتى بلغ فيه أمره.

ومن ذلك نصره بالرعب أمامه مسيرة شهر؛ كما قال صلى الله عليه وسلم.

فصـل: [في ذكره في كتب الأولين]

ومن دلائل نبوته وعلامات رسالته ما ترادفت به الأخبار عن الرهبان والأحبار وعلماء أهل الكتاب، من صفته

---

(1) صحيح مسلم (2797).

وصفة أمته، واسمه وعلاماته، وذكر الخاتم الذي بين كتفيه، وما وجد من ذلك في التوراة والإنجيل مما قد جمعه العلماء وبيّنوه، ونقله ثقات من أسلم منهم، مثل ابن سلام، وابني سعية، وابن يامين، ومُخيريق؛ وكعب، وأشباههم ممن أسلم من علماء يهود، وبحيرا، ونصطور الحبشة، وصاحب بصرى، وضغاطر، وأسقف الشام، والجارود، وسلمان، والنجاشي، ونصارى الحبشة، وأساقف نجران، وغيرهم ممن أسلم من علماء النصارى.

وقد اعترف بذلك هرقل وصاحب رُومة عالما النصارى، ومقوقس صاحب مصر، وابن صوريا، وابن أخطب، وأخوه، وكعب بن أسد، والزبير بن باطيا، وغيرهم من علماء اليهود، ممن حمله الحسدُ والنّفاسة على البقاء على الشقاء.

والأخبارُ في هذا كثيرة لا تَنحصر.

وقد قرع أسماع اليهود والنصارى بما ذكر أنه في كتبهم من صفته وصفة أصحابه، واحتجّ عليهم بما انطوت عليه من ذلك صحفهم، وذمهم بتحريف ذلك وكتمانِه، وليّهم ألسنتهم ببيانِ أمره، ودعوتهم إلى المباهلة على الكاذب؛ فما منهم إلا من نفر عن معارضته، وإبداءِ ما ألزمهم من كتبهم إظهاره، ولو وجدوا خلاف قوله لكان إظهاره أهون عليهم من بذل النفوس والأموال وتخريب الدّيار والقِتال، وقد قال الله: ((قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)) [آل عمران:93].

القسم الثاني

فيما يجب على الأنام من حقوقه صلى الله عليه وسلم

قال القاضي أبو الفضل رحمه الله: وهذا قسم لخصنا فيه الكلام في أربعة أبواب على ما ذكرناه في أول الكتاب، ومجموعها في وجوب تصديقه، واتباعه، وطاعته، ومحبته، وتوقيره، وبرِّه، وحكم الصلاة عليه والتسليم.

الباب الأول

في فرض الإيمان به ووجوب طاعته واتباع سنته

قال الله تعالى: ((فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا)) [التغابن:8]، وقال: ((إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ)) [الفتح:8-9]، وقال: ((فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)) [الأعراف:158].

فالإيمان بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم واجب متعيِّن لا يتم إيمان إلا به، ولا يصح إسلام إلا معه، قال الله تعالى: ((وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا)) [الفتح:13].

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: {أُمِرتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، ويؤمنوا بي وبما جئت به، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله}[1].

فصل: [في وجوب طاعته]

وأما وجوب طاعته: فإذا وجب الإيمان به وتصديقه فيما جاء به وجبت طاعته؛ لأن ذلك مما أتى به؛ قال الله تعالى: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ)) [الأنفال:20].

وقال: ((قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ)) [آل عمران:32].

وقال: ((وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)) [آل عمران:132].

وقال: ((وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا)) [النور:54].

وقال: ((مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ)) [النساء:80].

وقال: ((وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)) [الحشر:7].

وقال: ((وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا)) [النساء:69].

---

(1) صحيح مسلم (20)(21).

وقال: ((وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ)) [النساء:64]؛ فجعل تعالى طاعة رسوله طاعته، وقرن طاعته بطاعته، ووعد على ذلك بجزيل الثواب، وأوعد على مخالفته بسوء العقاب، وأوجب امتثال أمره، واجتناب نهيه.

قال المفسرون والأئمة: طاعة الرسول: التزام سنته والتسليم لما جاء به.

وقالوا: وما أرسل الله من رسول إلا فرض طاعته على من أرسله إليه.

وقالوا: من يطع الرسول في سنته يطع الله في فرائضه.

وسئل سهل بن عبد الله عن شرائع الإسلام، فقال: ((وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ)) [الحشر:7].

عن أبي سلمة ابن عبد الرحمن أنه سمع أبا هريرة يقول: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: {من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصى أميري فقد عصاني}[1]، فطاعة الرسول من طاعة الله؛ إذ الله أمر بطاعته، فطاعته امتثال لما أمر الله به وطاعة له.

وقد حكى الله عن الكفار في دركات جهنم: ((يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا)) [الأحزاب:66]، فتمنوا طاعته حيث لا ينفعهم التمني.

وقال صلى الله عليه وسلم: {إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم}[2].

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عنه صلى الله عليه وسلم: {كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى، قالوا: يا رسول الله! ومن يأبى؟! قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى}[3].

وفي الحديث الآخر الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم: {مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قومًا، فقال: يا قوم! إني رأيت الجيش بعيني، وإني أنا النذير العريان، فالنجاء!! فأطاعه طائفة من قومه، فأدلجوا ، فانطلقوا على مهلهم فنجوا؛ وكذبت طائفة منهم، فأصبحوا مكانهم، فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مَثَل من أطاعني واتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذب ما جئت به من الحق}[4].

وفي الحديث الآخر في مثله: {كمثل من بنى دارًا وجعل فيها مأدُبة، وبعث داعيًا؛ فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة ؛ ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة، فالدار الجنة، والداعي محمد صلى الله عليه وسلم؛ فمن أطاع محمدًا فقد أطاع الله، ومن عصى محمدًا فقد عصى الله، ومحمد فَرْقٌ بين الناس}[5].

فصل: [في وجوب اتباعه، وامتثال أمره، والاقتداء بهديه]

---

(1) صحيح البخاري (2956، 2957)، صحيح مسلم (1835).

(2) صحيح البخاري (7288)، صحيح مسلم (1337).

(3) صحيح البخاري (7280).

(4) صحيح البخاري (7283).

(5) صحيح البخاري (7281) في حديث طويل من حديث جابر.

وأما وجوب اتباعه، وامتثال سنته، والاقتداء بهديه؛ فقد قال تعالى: ((قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)) [آل عمران:31].

وقال: ((فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)) [الأعراف:158].

وقال: ((فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا)) [النساء:65] أي: ينقادون لحكمك؛ يقال: سلّم واستسلم، وأسلم؛ إذا انقاد.

وقال: ((لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا)) [الأحزاب:21].

عن العِرباض بن سارية في حديثه في موعظة النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: {فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين؛ عضوا عليها بالنواجذ؛ وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة}[1].

زاد في حديث جابر بمعناه: {وكل ضلالة في النار}[2].

وفي حديث أبي رافع عنه صلى الله عليه وسلم: {لا ألفين أحدكم متكئًا على أريكته، يأتيه الأمر من أمري، مما أمرت به، أو نهيت عنه، فيقول: لا أدري، ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه}[3].

وفي حديث عائشة رضي الله عنها: {صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئًا ترخص فيه فتنزَّه عنه قوم، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم؛ فحمد الله، ثم قال: ما بال قوم يتنزهون عن الشيء أصنعه؛ فوالله إني لأعلمهم بالله، وأشدُّهم له خشية}[4].

وقال صلى الله عليه وسلم: {إن بني إسرائيل افترقوا على اثنتين وسبعين ملة، وإن أمتي تفترق على ثلاث وسبعين، كلها في النار إلا واحدة. قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ قال: الذي أنا عليه اليوم وأصحابي}[5].

فصل: [فيما ورد عن السلف والأئمة من اتباع سنته والاقتداء بهديه وسيرته]

قال عمر بن عبد العزيز: (سن رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاة الأمر بعده سننًا؛ الأخذُ بها تصديق بكتاب الله، واستعمال بطاعة الله، وقوة على دين الله، ليس لأحد تغييرها ولا تبديلها ولا النظر في رأي من خالفها، من اقتدى بها فهو مهتد، ومن انتصر بها منصور، ومن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى، وأصلاه جهنم وساءت مصيرًا).

وقال الحسن بن أبي الحسن: (عملٌ قليل في سنة خير من عمل كثير في بدعة).

وقال ابن شهاب: (بلغنا عن رجال من أهل العلم، قالوا: الاعتصام بالسنة نجاة).

---

(1) سنن أبي داود (4607)، سنن الترمذي (2676).

(2) صحيح مسلم (867).

(3) سنن أبي داود (4605)، سنن الترمذي (2663).

(4) صحيح البخاري (6101، 7301)، صحيح مسلم (2356).

(5) سنن الترمذي (2641).

وكتب عمر بن الخطاب إلى عماله بتعلم السنة والفرائض واللحن -أي اللغة- وقال: (إن ناسًا يجادلونكم -يعني بالقرآن- فخذوهم بالسنن؛ فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله)[1].

وعن علي حين قَرَن فقال له عثمان: (ترى أني أنهى الناس عنه وتفعله! قال: لم أكن أدع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لقول أحد من الناس)[2].

وعنه: (ألا إني لست بنبي ولا يوحى إلي، ولكني أعمل بكتاب لله وسنة محمد صلى الله عليه وسلم ما استطعت).

وكان ابن مسعود يقول: (القصد في السنة خير من الاجتهاد في البدعة)[3].

وكتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز إلى عمر بحال بلده، وكثرة لصوصه؛ هل يأخذهم بالظِّنّة أو يحملهم على البينة وما جرت عليه السنة؟.

فكتب إليه عمر: (خذهم بالبينة وما جرت عليه السنة؛ فإن لم يصلحهم الحق فلا أصلحهم الله).

وعن عطاء في قوله: ((فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ)) [النساء:59] أي: إلى كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقال الشافعي: (ليس في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا اتباعها).

وقال عمر - ونظر إلى الحجَر الأسود-: (إنك حجر لا تنفع ولا تضر؛ ولولا أني رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يُقبِّلك ما قَبَّلتُك؛ ثم قبله)[4].

وقال أبو عثمان الحيري: (من أمَّر السنة على نفسه قولًا وفعلًا نطق بالحكمة، ومن أمّر الهوى على نفسه نطق بالبدعة).

فصل: [في أن مخالفة أمره وتبديل سنته ضلال]

مخالفة أمره وتبديل سنته ضلال وبدعة متوعد من الله تعالى عليه بالخذلان والعذاب، قال الله تعالى: ((فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)) [النور:63].

وقال: ((وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا)) [النساء:115].

عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى المقبرة... وذكر الحديث في صفة أُمَّته؛ وفيه: {فليُذَادَن رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال، فأناديهم: ألا هلُم، فيقال: إنهم قد بدَّلوا بعدك. فأقول: فسحقًا، فسحقًا، فسحقًا}[5].

---

(1) سنن الدارمي (1/ 49).

(2) صحيح البخاري (1563).

(3) سنن الدارمي (1/ 72).

(4) صحيح البخاري (1597، 1605، 1610)، صحيح مسلم (1270).

(5) صحيح مسلم (2302).

وروى أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: {من رغب عن سنتي فليس مني}[1].

وقال: {من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد}[2].

وروى ابن أبي رافع، عن أبيه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: {لا ألفين أحدكم متكئًا على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه، فيقول: لا أدري، ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه}[3].

زاد في حديث المقدام: {ألا وإن ما حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ما حرم الله}[4].

وقال صلى الله عليه وسلم: {هلك المتنطعون}[5].

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: (لست تاركًا شيئًا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل به إلا عملت به؛ إني أخشى إن تركت شيئًا من أمره أن أزيغ)[6].

---

(1) صحيح البخاري (5063).

(2) صحيح البخاري (2697)، صحيح مسلم (1718).

(3) سنن أبي داود (4605)، سنن الترمذي (2663).

(4) سنن الترمذي (2664).

(5) صحيح مسلم (2670)، والمتنطعون: المتعمقون المبالغون في الأمور.

(6) صحيح البخاري (3092).

الباب الثاني

في لزوم محبته صلى الله عليه وسلم

قال الله تعالى: ((قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)) [التوبة:24].

فكفى بهذا حضًا وتنبيهًا ودلالة وحجة على إلزام محبته، ووجوب فرضها، وعظم خطرها، واستحقاقه لها صلى الله عليه وسلم؛ إذ قرَّع تعالى من كان ماله وأهله وولده أحب إليه من الله ورسوله، وأوعدهم بقوله تعالى: ((فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ)) [التوبة:24] ثم فسقهم بتمام الآية، وأعلمهم أنهم ممن ضل ولم يهده الله.

عن أنس رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: {لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين}[1].

وعن أنس عنه صلى الله عليه وسلم: {ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار}[2].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم: (لأنت أحب إلي من كل شيء إلا نفسي التي بين جنبي، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لن يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه، فقال عمر: والذي أنزل عليك الكتاب لأنت أحب إلي من نفسي التي بين جنبيّ.

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: الآن يا عمر}[3].

فصل: [في ثواب محبّته صلى الله عليه وسلم]

عن أنس رضي الله عنه أن رجلًا أتى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: {متى الساعة يا رسول الله؟ قال: ما أعددت لها؟ قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله، قال: أنت مع من أحببت}.

وروي أنّ رجلًا أتَى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: {يا رسول الله! لأنت أحبُّ إلي من أهلي ومالي، وإني لأذكرك فما أصبر حتى أجيء فأنظر إليك، وإني ذكرت موتي وموتك، فعرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، وإن دخلتها لا أراك، فأنزل الله تعالى: ((وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا)) [النساء:69] فدعا به فقرأها عليه}.

---

(1) صحيح البخاري (15)، صحيح مسلم (44).

(2) صحيح البخاري (6632).

(3) صحيح البخاري (6171، 7153)، صحيح مسلم (164).

فصل: [فيما روي عن السلف والأئمة من محبتهم للنبي صلى الله عليه وسلم وشَوْقهم له]

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: {من أشد أمتي لي حبًا يكونون بعدي، يودُّ أحدهم لو رآني بأهله وماله}[1].

وروي عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم: (والذي بعثك بالحق لإسلام أبي طالب كان أقر لعيني من إسلامه -يعني أباه أبا قحافة- وذلك أن إسلام أبي طالب كان أقر لعينك).

وعن ابن إسحاق أن امرأة من الأنصار قتل أبوها وأخوها وزوجها يوم أُحدٍ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: (ما فعل رسُول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالوا: خيرًا، هو بحمد الله كما تحبين. قالت: أرُونيه حتى أنظر إليه، فلما رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل)[2].

وسئل علي بن أبي طالب رضى الله عنه: (كيف كان حبكم لرسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: كان -والله- أحب إلينا من أموالنا وأولادنا وآبائنا وأمهاتنا، ومن الماء البارد على الظمأ).

ولما احتضر بلال رضي الله عنه نادت امرأته: (واحزناه! فقال: واطرباه! غدًا ألقى الأحبة؛ محمدًا وحزبه).

ومثله عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما.

ولما أخرج أهل مكة زيد بن الدثنة من الحرم ليقتلوه قال أبو سفيان ابن حرب: أنشدك بالله يا زيد، أتحب أن محمدًا الآن عندنا مكانك تُضْرَب عنقه، وإنك في أهلك؟ فقال زيد: والله! ما أحب أن محمدًا الآن في مكانه الذي هو فيه تُصيبه شَوكة وإني جالس في أهلي، فقال أبو سفيان: ما رأيتُ من الناس أحدًا يحب أحدًا كحُبِّ أصحابِ محمدٍ محمدًا!).

ووقف ابن عمر على ابن الزبير رضي الله عنهما بعد قتله، فاستغفر له، وقال: (كنت والله ما علمت صوامًا قوامًا تحب الله ورسوله).

فصل: [في علامة محبَّته صلى الله عليه وسلم]

اعلم أن من أحبَّ شيئًا آثَره وآثر موافقته وإلا لم يكن صادقًا في حبه، وكان مدعيًا، فالصادق في حب النبي صلى الله عليه وسلم من تظهر علامة ذلك عليه؛ وأوَّلُها الاقتداءُ به، واستعمال سنته، واتباع أقواله وأفعاله، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، والتأدب بآدابه في عسره ويسره، ومنشطه ومكرهه، وشاهد هذا قوله تعالى: ((قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)) [آل عمران:31].

وإيثار ما شرعه وحض عليه على هوى نفسه، وموافقة شهوته، قال الله تعالى: ((وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ)) [الحشر:9].

---

(1) صحيح مسلم (2832).

(2) دلائل النبوة للبيهقي (3/302).

فمن اتصف بهذه الصفة فهو كامل المحبة لله ورسوله، ومن خالفها في بعض هذه الأمور فهو ناقص المحبة، ولا يخرج عن اسمها.

ودليله: قوله صلى الله عليه وسلم للذي حدَّه في الخمر فلعَنَه بعضهم، وقال: ما أكثر ما يُؤْتَى به! فقال النبي صلى الله عليه وسلم: {لا تلعنه؛ فإنه يحب الله ورسوله}.

ومن علامات محبة النبي صلى الله عليه وسلم: كثرةُ ذِكره له؛ فمن أحب شيئًا أكثر ذكره.

ومنها: كثرة شوقه إلى لقائه؛ فكل حبيبٍ يحب لقاء حبيبِه.

وفي حديث الأشعريين عند قدومهم المدينة أنهم كانوا يرْتَجزون:

غدًا نلقى الأحبَّة محمدًا وصحبه[1]

ومن علاماته مع كثرة ذكره: تعظيمه له، وتوقيره عند ذكره، وإظهار الخشوع والانكسار مع سماع اسمه.

قال إسحاق التجيبي: (كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بعده لا يذكرونه إلا خشعوا، واقشعرت جلودهم، وبكوْا).

وكذلك كثير من التابعين منهم من يفعل ذلك محبة له وشوقًا إليه، ومنهم من يفعله تهيبًا وتوقيرًا.

ومنها: محبته لمن أحب النبي صلى الله عليه وسلم، ومن هو بسببه من آل بيْته وصحابته من المهاجرين والأنصار؛ وعداوة من عاداهم، وبغض من أبغضهم وسبَّهم؛ فمن أحب شيئًا أحب من يحبه.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحَسن والحسين: {اللهم إني أُحبّهما فأحِبّهما}[2].

وفي رواية في الحسن: {اللهم إني أحبه فأحب من يُحبّه}.

وقال: {من أحبهما فقد أحبني، ومن أحبني فقد أحب الله، ومن أبغضهما فقد أبغضني، ومن أبغضني فقد أبغض الله}[3].

وقال: {الله الله في أصحابي، لا تتخذوهم غرَضًا[4] بعدي؛ فمن أحبهم فبحبّي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه}[5].

وقال في فاطمة رضِي الله عنها: {إنها بضعة مني، يُغضبني ما أغْضَبها}[6].

وقال لعائشة في أسامة بن زيد: {أحبيه؛ فإني أحبه}.

---

(1) دلائل النبوة للبيهقي (5/ 351).

(2) سنن الترمذي (3782).

(3) سنن ابن ماجة (143).

(4) غرضًا: هدفًا يرمى إليه.

(5) سنن الترمذي (3862).

(6) صحيح البخاري (3714)، صحيح مسلم (2449).

وقال: {آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغضهم}[1].

ومنها: بغض من أبغض الله ورسوله، ومعاداة من عاداه، ومجانبة من خالف سنته وابتدع في دينه، واستثقاله كل أمر يخالف شريعته، قال الله تعالى: ((لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ)) [المجادلة:22].

وهؤلاء أصحابه صلى الله عليه وسلم قد قتلوا أحِبّاءهم، وقاتلوا آباءهم وأبناءهم في مرضاته.

وقال له عبد الله بن عبد الله بن أبي: (لو شئت لأتيتك برأسه)[2]. يعني: أباه.

ومنها: أن يُحب القرآن الذي أتى به صلى الله عليه وسلم، وهدى به واهتدى، وتخلق به، حتى قالت عائشة رضي الله عنها: {كان خلقه القرآن}، وحبه للقرآن يكون بتلاوته، والعمل به، وتفهمه.

ويحب سنته، ويقف عند حدودها.

قال ابن مسعود: (لا يسأل أحد عن نفسه إلا القرآن؛ فإن كان يحب القرآن فهو يحب الله ورسوله).

ومن علامة حبه للنبي صلى الله عليه وسلم: شفقته على أمته، ونصحه لهم، وسعيه في مصالحهم، ورفع المضار عنهم، كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمؤمنين رءوفًا رحيمًا.

ومن علامة تمام محبته: زهده في الدنيا، وإيثاره الفقر، واتصافه به.

وقد قال عليه الصلاة والسلام لأبي سعيد الخدري: {إن الفقر إلى من يحبني منكم أسرع من السَّيل من أعلى الوادي- أو الجبل- إلى أسفله}[3].

فصل: [في معنى المحبة للنبي صلى الله عليه وسلم وحقيقتها]

قال سفيان: (المحبة اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم) كأنه التفت إلى قوله تعالى: ((قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)) [آل عمران:31].

وقال بعضهم: محبة الرسول؛ اعتقاد نصرته، والذب عن سنته، والانقياد لها، وهيبة مخالفته.

وقال بعضهم: المحبة: دوام الذكر للمحبوب.

وقال آخر: إيثار المحبوب.

وقال بعضهم: المحبة: الشوق إلى المحبوب.

وأكثر العبارات المتقدمة إشارة إلى ثمرات المحبة دون حقيقتها.

وحقيقة المحبة: الميل إلى ما يوافق الإنسان، وتكون موافقته له إمّا لاستلذاذه بإدراكه؛ كحب الصور الجميلة، والأصوات الحسنة، والأطعمة والأشربة اللذيذة.. وأشباهها مما كل طبع سليم مائل إليها لموافقتها له.

---

(1) صحيح البخاري (17، 3784)، صحيح مسلم (128).

(2) مسند البزار (2708- كشف).

(3) سنن الترمذي (2350).

أو لاستلذاذه بإدراكه بحاسّة عقله وقلبه معاني باطنة شريفة؛ كمحبة الصالحين والعلماء وأهل المعروف، والمأثور عنهم السِّيَرُ الجميلة والأفعال الحسنة؛ فإن طبع الإنسان مائل إلى الشغف بأمثال هؤلاء حتى يبلغ التعصّب بقوم، والتشيُّع من أمة في آخرين ما يؤدي إلى الجلاء عن الأوطان، وهتك الحرم، واختزام النفوس.

أو يكون حبُّه إياه لموافقته له من جهة إحسانه له وإنعامه عليه؛ فقد جُبِلت النفوس على حب من أحسن إليها.

فإذا تقرر هذا نظرْت هذه الأسباب كلها في حقه صلى الله عليه وسلم فعلمت أنه صلى الله عليه وسلم جامعٌ لهذه المعاني الثلاثة الموجبة للمحبة.

أما جمال الصورة والظاهر، وكمالُ الأخلاق والباطن، فقد قرّرنا منها قبل فيما مرَّ في الكتاب ما لا يحتاج إلى زيادة.

وأما إحسانه وإنعامُه على أمَّته فكذلك قد مر منه في أوصاف الله تعالى له من رأفته بهم، ورحمته لهم، وهدايته إياهم، وشفقته عليهم، واستنقاذهم به من النار، وأنه بالمؤمنين رءوف رحيم، ورحمة للعالمين، ومبشرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، ويَتْلو عليهم آياته، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويهديهم إلى صراط مستقيم.

فأي إحسان أجلُّ قدرًا، وأعظم خطرًا من إحسانه إلى جميع المؤمنين؟ وأيُّ إفضال أعمُّ منفعة، وأكثر فائدة من إنعامه على كافة المسلمين؟ فهو ذريعتهم إلى الهداية، ومنقذهم من العماية، وداعيهم إلى الفلاح، ووسيلتهم إلى ربهم، وشفيعهم والمتكلم عنهم، والشاهد لهم، والموجب لهم البقاء الدائم والنعيم السَّرمد.

فقد استبان لك أنه صلى الله عليه وسلم مستوجبٌ للمحبة الحقيقية شرعًا بما قدّمناه من صحيح الآثار، وعادة وجبلّة بما ذكرناه آنفًا؛ لإفاضتِهِ الإحسان، وعمومِه الإجمال؛ فإذا كان الإنسان يحب من منحه في دُنياه مرة أو مرتين معروفًا، أو استنقذه من هلَكة أو مضَرَّة مدة التأذّي بها قليل منقطع، فمن منحه ما لا يَبيدُ من النعيم، ووقاه ما لا يَفْنى من عذاب الجحيم أولى بالحب.

وإذا كان يُحب بالطبع ملك لحُسن سيرته، أو حاكِم لما يؤثَر من قِوام طريقته، أو قاصّ بعيد الدار لما يشاد من علمه أو كرم شيمته، فمَنْ جمع هذه الخصال على غاية مراتب الكمال أحقُّ بالحب، وأولى بالميل.

وقد قال علي رضي الله عنه في صفته صلى الله عليه وسلم: {من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه}.

فصل: [في وجوب مناصحته صلى الله عليه وسلم]

قال الله تعالى: ((وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)) [التوبة:91].

قال أهل التفسير: إذا نصحوا لله ورسوله: إذا كانوا مخلصين مسلمين في السر والعلانية.

عن تميم الداري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {إن الدين النصيحة، إن الدين النصيحة، إن الدين النصيحة. قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم}[1].

(1) صحيح مسلم (55).

قال العلماء: النصيحة لله ولرسوله وأئمة المسلمين وعامتهم واجبة.

قال الإمام أبو سليمان البستي: (النصيحة كلمة يعبر بها عن جملة إرادة الخير للمنصوح له، وليس يمكن أن يعبر عنها بكلمة واحدة تحصرها، ومعناها في اللغة: الإخلاص، من قولهم: نصحتُ العسل، إذا خلصته من شَمعه.

فنصيحة الله تعالى: صحة الاعتقاد له بالوحدانية، ووصفه بما هو أهله، وتنزيهه عما لا يجوز عليه، والرغبة في محابه، والبعد من مساخِطِه، والإخلاص في عبادته.

والنصيحة لكتابه: الإيمان به، والعمل بما فيه، وتحسين تلاوته، والتخشع عنده، والتعظيم له، وتفهمه والتفقه فيه، والذب عنه من تأويل الغالين، وطعن الملحدين.

والنصيحة لرسوله: التصديق بنبوته، وبذل الطاعة له فيما أمر به ونهى عنه؛ قاله أبو سليمان).

وقال أبو بكر: (ومؤازرته ونصرته، وحمايته حيًا وميتًا، وإحياء سنته بالطلب، والذب عنها، ونشرها، والتخلق بأخلاقه الكريمة وآدابه الجميلة).

وقال أبو إبراهيم إسحاق التجِيبي: (نصيحة رسول الله صلى الله عليه وسلم: التصديق بما جاء به، والاعتصام بسنته، ونشرها، والحض عليها، والدعوة إلى الله وإلى كتابه وإلى رسوله، وإليها وإلى العمل بها).

قال أبو بكر الآجري: (النصح له يقتضي نُصحين: نصحًا في حياته، ونصحًا بعد مماته؛ ففي حياته: نصح أصحابِه له بالنصر والمحاماة عنه ومعاداة مَنْ عاداه، والسمع والطاعة له، وبذل النفوس والأموال دونه، كما قال الله تعالى: ((رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا)) [الأحزاب:23].

وقال: ((وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ)) [الحشر:8].

وأما نصيحة المسلمين له بعد وفاته: فالتزام التوقير والإجلال، وشدة المحبة له، والمثابرة على تعلم سنته ، والتفقه في شريعته، ومحبة آل بيته وأصحابه، ومجانبة من رغب عن سنته وانحرف عنها، وبغضه والتحذير منه، والشفقة على أمته، والبحث عن تعرف أخلاقِه وسيَره وآدابه، والصبرُ على ذلك.

وأما النصح لأئمة المسلمين فطاعتهم في الحق، ومعُونتهم فيه، وأمرهم به، وتذكيرهم إياه على أحسن وجه، وتنبيههم على ما غفلوا عنه وكُتِم عنهم من أمورِ المسلمين، وترْك الخروج عليهم، وتضريب الناس وإفساد قلوبهم عليهم.

والنُّصحُ لعامة المسلمين: إرشادهم إلى مصالحهم، ومعونتهم في أمر دينهم ودُنياهم بالقول والفعل، وتنبيه غافلهم، وتبصير جاهلهم، ورفد محتاجهم، وستر عوراتهم، ودفع المضار عنهم، وجلب المنافع إليهم).

الباب الثالث

في تعظيم أمره ووجوب توقيره وبرّه

قال الله تعالى: ((إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا)) [الفتح:8-9].

وقال: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ)) [الحجرات:1-4].

وقال تعالى: ((لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا)) [النور:63].

فأوجب الله تعالى تعزيزه وتوقيره، وألزَم إكرامه وتعظيمه.

قال ابن عباس: (تُعزِّروه: تُجِلوه) وقال المبرّد: (تعزِّروه: تبالغوا في تعظيمه) وقال الأخفش: (تنْصرونه)، وقال الطبري: (تُعينونه).

ونهي عن التقدم بين يديه بالقول وسوء الأدب بسبقه بالكلام.

ونُهُوا عن التقدم والتعجل بقضاء أمر قبل قضائه فيه؛ وأن يَفْتَاتُوا بشيء في ذلك من قتال أو غيره من أمر دينهم إلا بأمره، ولا يسبقوه به.

ثم وعظهم وحذرهم مخالفة ذلك؛ فقال: ((وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)) [الحجرات:1].

قال السلمي: (اتقوا الله في إهمال حقه وتضييع حرمته، إنه سميع لقولكم، عليم بفعلكم).

ثم نهاهم عن رفع الصوت فوق صوته، والجهْرِ له بالقول كما يجهر بعضهم لبعض ويرفع صوته.

وقيل: كما يُنادي بعضهم بعضًا باسمه.

قال أبو محمد مكي: (أي: لا تسابقوه بالكلام، وتغلظوا له بالخطاب، ولا تُنادوه باسمه نداء بعضكم بعضًا، ولكن عظموه ووقروه ونادوه بأشرف ما يحبُّ أن ينادى به: يا رسول الله، يا نبيَّ الله).

وهذا كقوله في الآية الأخرى: ((لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا)) [النور:63] على أحد التأويلين.

ثم خوفهم الله تعالى بحَبْط أعمالهم إن هم فعلوا ذلك، وحذرهم منه.

وقال الله تعالى: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا...)) [البقرة:104].

قيل: كانت اليهود تعرض بها للنبي صلى الله عليه وسلم بالرعونة، فَنُهي المسلمون عن قَوْلها؛ قطعًا للذريعة، ومنعًا للتَّشبه بهم في قولها، لمشاركة اللفظة.

فصل: [في عادة الصحابة في تعظيمه صلى الله عليه وسلم وتوقيره وإجلاله]

عن ابن شُماسَة المَهْري، قال: حَضَرَنا عمرُو بن العاص... فذكر حديثًا طويلًا فيه عن عمرو، قال: (وما كان أحد أحب إليّ من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا أجل في عيني منه، وما كنت أطيق أن أَملأَ عَيْنِي منه إجلالًا له، ولو سُئلتُ أن أصفه ما أطقْت؛ لأني لم أكُنْ أملأ عَيني منه)[1].

وروى الترمذي: عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخرج على أصحابه من المُهاجرين والأنصار وهم جلوس، فيهم أبو بكر، وعمر، فلا يرفَعُ أحدٌ منهم إليه بصره إلا أبو بكر وعمر؛ فإنهما كانا ينظران إليه وينظر إليهما، ويتَبَسَّمان إليه ويتبسَّمُ إليهما[2].

وقال أسامة بن شريك: (أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه حولَه كأنما على رءوسهم الطير)[3].

وذهب عروة بن مسعود -حين وجّهَتْه قُريش عام القضيّة- إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرأى من تعظيم أصحابه له أنه لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه، وكادوا يقتتلون عليه، ولا يبصق بصاقًا، ولا يتنخَّم نُخَامة إلا تلقوها بأكفهم فدَلكُوا بها وجوههم وأجسادهم؛ ولا تسقط منه شعرة إلا ابتدروها؛ وإذا أمرهم بأمر ابتدروا أمره؛ وإذا تكلم خفضوا أصواتَهم عنده، وما يُحِدُّون إليه النظر تعظيمًا له، فلما رجع إلى قريش قال: (يا معشر قُريش! إني جئتُ كِسْرى في مُلْكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه؛ وإني والله! ما رأيت مِلِكًا في قوم قطُّ مثل محمدٍ في أصحابه).

وفي رواية: (ما رأيتُ ملكًا قط يُعظمه أصحابه ما يُعظم محمدًا أصحابُه، وقد رأيت قومًا لا يُسلمُونه أبدًا)[4].

وعن أنس: (لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم والحلاّق يحلقُه، وقد أطاف به أصحابه، فما يُريدون أن تَقَع شعرة إلا في يد رجل)[5].

ولمّا أذِنت قريش لعُثمان في الطواف بالبيت حين وجَّهه النبي صلى الله عليه وسلم إليهم في القضية أبَى، وقال: (ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله صلى الله عليه وسلم)[6].

فصل: [في تعظيم النبي بعد موته]

---

(1) صحيح مسلم (121).

(2) سنن الترمذي (3668).

(3) سنن أبي داود (3855)، سنن الترمذي (2038).

(4) صحيح البخاري (2731، 2732) من حديث المسور ومروان.

(5) صحيح مسلم (2325).

(6) دلائل النبوة للبيهقي (4/ 133- 135).

اعلم أن حرمة النبي صلى الله عليه وسلم بعد موته، وتوقيره وتعظيمه؛ لازمٌ كما كان حالَ حياته؛ وذلك عند ذكره صلى الله عليه وسلم، وذكر حديثه وسنته، وسماع اسمه وسيرته، ومعاملة آلِهِ وعِتْرَته ، وتعظيمِ أهل بيته وصحابته.

وهذه كانت سيرة سلفنا الصالح وأئمتنا الماضين رضي الله عنهم.

قال مالك وقد سُئل عن أيوب السختياني: (ما حدثتكم عن أحد إلا وأيوب أفضل منه، حج حجتين، فكنت أرمُقُه ولا أسمع منه، غير أنه كان إذا ذُكر النبي صلى الله عليه وسلم بكى حتى أرحمه، فلما رأيت منه ما رأيت، وإجلاله للنبي صلى الله عليه وسلم كَتَبْت عنه).

وقال مصعب بن عبد الله: (كان مالك إذا ذكر النبي صلى الله عليه وسلم يتغير لونه، وينحني حتى يصعب ذلك على جُلسائه، فقيل له يومًا في ذلك، فقال: لو رأيتم ما رأيت لما أنكرتم علي ما ترون، ولقد كنت أرى محمد بن المُنْكدِر، وكان سيِّد القُراء، لا نكادُ نسألُه عن حديث أبدًا إلا يبكي حتى نرحمَه.

ولقد كنت أرى جعفر بن محمد الصادق، وكان كثير الدُّعابة والتبسم؛ فإذا ذُكر عنده النبي صلى الله عليه وسلم اصْفَرّ، وما رأيته يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا على طهارةٍ، وقد اختلفت إليه زمانًا فما كنت أراه إلا على ثلاث خصال: إما مصليًا، وإمّا صامتًا، وإما يقرأُ القرآن، ولا يتكلم فيما لا يعنيه، وكان من العلماء والعباد الذين يخشون الله عز وجل.

ولقد كان عبد الرحمن بن القاسم يذكر النبي صلى الله عليه وسلم، فيُنْظَر إلى لونه كأنه نُزِف منه الدم، وقد جف لسانه في فمه هيبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولقد كنتُ آتي عامر بن عبد الله بن الزبير، فإذا ذُكر عنده النبي صلى الله عليه وسلم بكى حتى لا يبقى في عينيه دُموع.

ولقد رأيتُ الزُّهري -وكان من أهنأ الناس وأقربِهم- فإذا ذُكر عنده النبي صلى الله عليه وسلم فكأنه ما عَرَفك ولا عَرفْته.

ولقد كنت آتي صفوان بن سليم، وكان من المتعبدين المجتهدين، فإذا ذُكر النبي صلى الله عليه وسلم بكى، فلا يزال يبكي حتى يقوم الناس عنه ويتركوه).

وكان ابن سيرين ربما يضحك، فإذا ذُكِرَ عنده حديثُ النبي صلى الله عليه وسلم خشع.

وكان عبد الرحمن بن مهدي إذا قرأ حديثَ النبي صلى الله عليه وسلم أمرهم بالسكوت، وقال: ((لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ))، ويتأول أنه يجب له من الإنصات عند قراءة حديثه ما يجب له عند سماع قوله.

فصل: [في سيرة السلف في تعظيم رواية حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه]

عن عمرو بن ميمون، قال: (اختلفتُ إلى ابنِ مسعود سنة؛ فما سمعتُه يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلا أنه حدث يومًا فجرى على لسانه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم عَلاهُ كَرْبٌ، حتى رأيتُ العَرَقَ يتحدَّر عن جَبهته، ثم قال: هكذا إنْ شاء الله، أو فَوق ذا، أو ما دُون ذَا، أو ما هو قريبٌ مِنْ ذَا).

وقال إبراهيم بن عبد الله بن قُرَيْم الأنصاري قاضي المدينة: (مرّ مالك بن أنس على أبي حازم وهو يحدث، فجازَهُ، وقال: إني لم أجِد مَوْضِعًا أجلسُ فيه، فكرهتُ أن آخذ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا قائم).

وقال مالك: (جاء رجل إلى ابن المسيب، فسأله عن حديث وهو مُضْطَجِعٌ، فجلس وحدَّثه، فقال له الرجل: وددت أنك لم تَتَعنَّ، فقال: إني كرهتُ أنْ أحدثك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا مضطجع).

وقال أبو مصعب: (كان مالك بن أنس لا يحدث بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا وهو على وضوء؛ إجلالًا له).

وحكى مالك ذلك عن جعفر بن محمد.

وقال مصعب بن عبد الله: (كان مالك بن أنس إذا حدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، توضَّأ وتهيَّأ، ولبس ثيابه، ثم يحدِّث.

قال مصعب: فسئل عن ذلك، فقال: إنه حديثُ رسول الله صلى الله عليه وسلم!).

قال مُطَرِّف: (كان إذا أتى الناس مالكًا خرجت إليهم الجاريةُ، فتقول لهم: يقولُ لكم الشيخ: تريدون الحديث أو المسائل؟ فإنْ قالوا: المسائل خرج إليهم، وإن قالوا: الحديث دخل مُغْتَسَله، واغتسل وتطيَّب، ولبس ثيابًا جُدُدًا، ولبس ساجَه[1] وتعمم، ووضع على رأسه رداء، وتلقى له منصة، فيخرج فيجلسُ عليها، وعليه الخشوع، ولا يزال يبخّرُ بالعود حتى يفْرُغ مِن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم).

وكان قَتادة لا يحدث إلا على طهارة، ولا يقرأ حديث النبي صلى الله عليه وسلم إلا على وضوء.

قال عبد الله بن المبارك: (كنت عند مالك، وهو يحدثنا، فلدغته عقربٌ ست عشرةَ مرةً، وهو يتغير لونه ويصفر ولا يقطع حديثَ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما فرغ من المجلس، وتفرَّق الناسُ عنه، قلت له: يا أبا عبد الله! لقد رأيتُ اليوم منك عجبًا. قال: نعمْ، لدغتني عقرب ست عشرة مرة، وأنا صابر في جميع ذلك، وإنما صبرْتُ إجلالًا لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم!).

قال ابن مهدي: (مشيتُ يومًا مع مالك إلى العقِيق، فسألتُه عن حديث، فانتهرني وقال لي: كنت في عيني أجل من أن تسأل عن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نمشي).

فصل: [في توقيره، وبر آله، وذريته، وأمهات المؤمنين أزواجه]

قال الله تعالى: ((إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا)) [الأحزاب:33].

وقال تعالى: ((وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ)) [الأحزاب:6].

عن زيد بن أرقم، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {أنشدكم اللهَ أهلَ بيتي... ثلاثًا.

(1) الساج: الطيلسان. المنصة: ما يُشبه الكرسي.

قلنا لزيد: مَنْ أهل بيته؟ قال: آل علي، وآل جعفر، وآل عقيل، وآل العباس}[1].

وقال صلى الله عليه وسلم: {إني تاركٌ فيكم ما إنْ أخذتُم به لم تضِلُّوا: كتاب الله، وعِتْرتي أهلَ بيتي؛ فانظروا كيف تخلُفوني فيهما}[2].

وعن عمر بن أبي سلمة: {لما نزلت: ((إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا)) [الأحزاب:33] -وذلك في بيت أمِّ سلمة- دعا فاطمة وحسنًا وحُسينًا، فجللهم بكساء، وعلي خلف ظهره، فجلله بكسائه، ثم قال: اللهم هؤلاء أهلي بيتي؛ فأذهب عنهم الرجس، وطهرهم تطهيرًا}[3].

وعن سعد بن أبي وقاص: {لما نزلت آية المباهلة دعا النبي صلى الله عليه وسلم عَلِيّا وحَسَنًا والحسين وفاطمة، وقال: اللهم هؤلاء أهلي}[4].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم في علي: {من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه}[5].

وقال فيه: {لا يحبك إلا مؤمن، ولا يبغضك إلا منافق}[6].

وكان يأخذ أسامة بن زيد والحسن، ويقول: {اللهم إني أحبهما فأحبهما}[7].

وقال أبو بكر: (ارقبوا محمدًا في أهل بيته)[8].

وقال أيضًا: (والذي نفسي بيده! لقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أحبُّ إلي أن أصِل من قرابتي)[9].

وقال صلى الله عليه وسلم لأم سلمة: {لا تؤذيني في عائشة}[10].

وعن عقبة بن الحارث: (رأيتُ أبا بكر رضي الله عنه، وجعل الحسن على عنقِه وهو يقول:

بأبي شبيهٌ بالنبي ليس شبيهًا بعلي

وعليٌ رضي الله عنه يضْحك).

وعن عبد الله بن الحسن بن حُسين، قال: (أتيتُ عُمر بن عبد العزيز في حاجة، فقال لي: إذا كانت لك حاجة فأرسِل إليّ أو اكتُب، فإني أستحي من الله أن يراك على بابي).

---

(1) صحيح مسلم (2408).

(2) سنن الترمذي (3788).

(3) سنن الترمذي (3787).

(4) صحيح مسلم (2404).

(5) سنن الترمذي (3713).

(6) صحيح مسلم (78).

(7) صحيح البخاري (3735).

(8) صحيح البخاري (3713).

(9) صحيح البخاري (3712)، صحيح مسلم (1759) في حديث طويل.

(10) صحيح البخاري (2581).

وعن الشعبي: (صلّى زيد بن ثابت على جنازة أُمه، ثم قُرِّبت له بغلتُه ليركبَها، فجاء ابن عباس فأخذ بركابه، فقال زيد: خل عنه يا بْن عمِّ رسول الله! فقال: هكذا نفعَلُ بالعلماء، فقبَّل زيد يد ابن عباس، وقال: هكذا أُمرنا أن نفْعَل بأَهل بيتِ نبيّنا).

ولما فرض عمر بن الخطاب لابنه عبد الله في ثلاثة آلاف، ولأسامة بن زيد في ثلاثة آلاف وخمسمائة قال عبد الله لأبيه: (لم فضلته، فوالله ما سبقني إلى مشْهَـد؟ فقال له: لأن زيدًا كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبيك، وأسامة أحبّ إليه منك؛ فآثرت حب رسول الله صلى الله عليه وسلم على حُبّي)[1].

وبلغ معاوية أن كابس بن ربيعة يُشَبِّه برسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما دخل عليه من باب الدار، قام عن سريره وتلقاه، وقبل بين عينيه، وأقطعه المِرْغاب لشَبهه صورةَ رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ورُوي أن مالكًا رحمه الله لما ضربه الأمير جعفر بن سليمان، ونال منه ما نال، وحُمِل مغشيًا عليه؛ دخل عليه الناس فأفاق، فقال: (أشهدكم أني جعلت ضاربي في حل، فسئل بعد ذلك، فقال: خفت أن أموت، فألقى النبي صلى الله عليه وسلم، فأستحِي منه أن يدخل بعض آله النار بسببي).

وكان أبو بكر وعُمر يزُوران أم أيمن مولاةَ النبي صلى الله عليه وسلم، ويقولان: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزورها)[2].

فصل: [من توقيره وبره توقير أصحابه وبِرّهم]

ومن توقيره وبِره صلى الله عليه وسلم، توقير أصحابِه وبِرُّهم ومعرفةُ حقِّهم، والاقتداءُ بهم، وحسن الثناء عليهم، والاستغفار لهم، والإمساك عما شَجَر بينهم، ومعاداةُ مَنْ عاداهُم، والإضرابُ عن أخبار المؤرّخين، وجهلة الرواة، وضُلاّل الشيعة والمبتدعين القادحة في أحد منهم؛ وأن يُلتَمس لهم فيما نقل عنهم من مِثْل ذلك فيما كان بينهم من الفتن أحسنُ التأويلات، ويُخَرَّج لهم أصْوبُ المخارج؛ إذ هم أهلُ ذلك، ولا يذكر أحدٌ منهم بسوءٍ، ولا يُغْمَصُ[3] عليه أمر؛ بل تُذْكر حسناتُهم وفضائلُهم، وحَمِيدُ سيرتهم، ويُسكت عما وراء ذلك، كما قال صلى الله عليه وسلم: {إذا ذُكر أصحابي فأمسكوا}[4].

قال الله تعالى: ((مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا)) [الفتح:29].

---

(1) سنن الترمذي (3813).

(2) صحيح مسلم (2454).

(3) يُغمص: يُعَاب.

(4) المعجم الكبير للطبراني (10448)، حلية الأولياء (4/ 108).

وقال: ((وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)) [التوبة:100].

وقال الله تعالى: ((لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا)) [الفتح:18].

وقال: ((رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا)) [الأحزاب:23].

عن حذيفة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {اقْتَدُوا باللذين من بعدي: أبي بكر، وعمر}[1].

وقال: {الله الله في أصحابي؛ لا تتخذوهم غرضًا بعدي؛ فمن أحبهم فبحبّي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه}.

وقال: {لا تسبوا أصحابي، فلو أنفق أحدكم مثل أُحُدٍ ذهبًا ما بلغ مُدَّ أحدِهم ولا نصيفه}[2].

وقال: {من سب أصحابي، فعليه لعنة الله والملائكةِ والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلًا[3]}[4].

وقال مالك بن أنس: (من أبغض الصحابة وسبهم فليس له في فَيْءِ المسلمين حق، ونزع بآية الحشر: ((وَمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ))... إلى قوله تعالى: ((وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)) [الحشر:6-10]

وقال: (من غاظه أصحابُ محمدٍ فهو كافر؛ قال الله تعالى: ((لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ)) [الفتح:29]).

وقال عبد الله بن المُبَارك: (خصلتان من كانتا فيه نجا: الصدق، وحُبّ أصحابِ محمد صلى الله عليه وسلم).

وقال أيوب السختياني: (من أحب أبا بكر فقد أقام الدين، ومَنْ أحب عُمر فقد أوْضَحَ السبيل، ومن أحب عثمان فقد استضاء بنُور الله، ومن أحب عليًا فقد أخذ بالعُرْوة الوُثْقى، ومن أحسن الثناء على أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فقد برئ من النِّفَاق، ومن انتَقَص أحدًا منهم فهو مبتدعٌ مخالفٌ للسنة والسلف الصالح، وأخاف ألا يصعد له عمل إلى السماء حتى يحبّهم جميعًا، ويكون قلبُه سليمًا).

---

(1) ابن ماجة (97).

(2) صحيح مسلم (2540)(2541).

(3) الصرف: التوبة. العدل: الفريضة.

(4) الحلية (7/ 103)، الفردوس بمأثور الخطاب (7302).

وقال رجل للمُعَافى بن عمران: (أين عمر بن عبد العزيز مِنْ معاوية؟ فغضب وقال: لا يُقاسُ بأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أحدٌ، معاوية صاحبه وصِهْره، وكاتبُه وأمِينُه على وحي الله).

وقال صلى الله عليه وسلم في الأنصار: {اعْفُوا عن مُسِيئهم، واقبلوا من مُحْسِنهم}[1].

وقال مالك رحمه الله: (هذا النبي مؤدِّب الخَلْق، الذي هدانا الله به، وجعله رحمة للعالمين، يخرج في جوف الليل إلى البقيع فيدعو لهم ويستغفر كالمُودِّع لهم؛ وبذلك أمره الله، وأمر النبي بحبهم، وموالاتهم، ومعاداة من عاداهم)[2].

الباب الرابع

في حكم الصلاة عليه والتسليم وفرض ذلك وفضيلته

قال الله تعالى: ((إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا)) [الأحزاب:56].

قال ابن عباس: (معناه: إن الله وملائكته يباركون على النبي، وقيل: إن الله يترحم على النبي، وملائكته يدعون له).

وقد ورد في الحديث: صفة صلاة الملائكة على من جلس ينتظر الصلاة: {اللهم! اغفر له، اللهم! ارحمه} فهذا دعاء[3].

وقال أبو العالية: (صلاةُ الله ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكةِ الدعاء).

قال القاضي أبو الفضل: قد فرق النبي صلى الله عليه وسلم في حديث تعليم الصلاة بين لفظ الصلاة ولفظ البركة؛ فدلّ أنهما بمعنَيَيْن.

وأما التسليمُ الذي أمر اللهُ تعالى به عباده فقال القاضي أبو بكر بن بُكير: (نزلت هذه الآية على النبي صلى الله عليه وسلم، فأمر الله أصحابَه أنْ يسلموا عليه؛ وكذلك من بعدهم أُمِرُوا أن يسلِّمُوا على النبي صلى الله عليه وسلم عند حضورهم قبْره، وعند ذِكْره).

وفي معنى السلام عليه ثلاثة وجوه:

أحدها: السلامة لك ومعك، ويكون السلام مصدرًا كاللَّذاذ واللَّذاذة.

الثاني: أي: السلام على حِفْظك ورعايتك مُتَوَلّ له، وكفِيل به، ويكون هنا السلام اسم الله.

الثالث: أن السلام بمعنى المسالمة له والانقياد، كما قال: ((فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا)) [النساء:65].

فصل: [حكم الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم]

---

(1) صحيح البخاري (3801)، صحيح مسلم (2510).

(2) صحيح مسلم (974).

(3) صحيح البخاري (659)، صحيح مسلم (649).

اعلم أن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فرض على الجملة، غير محدّد بوقت؛ لأمرِ الله تعالى بالصلاة عليه، وحَمَلَ الأئمة والعلماء الأمر به على الوجوب، وأجمعوا عليه.

وحكى أبو جعفر الطبري أن مَحْمَل الآية عنده على النّدب؛ وادَّعى فيه الإجماع، ولعلّه فيما زاد على مرَّة، والواجب منه الذي يسقُطُ به الحَرَجُ ومَأْثَمُ ترك الفرْض مرةٌ، كالشهادةِ له بالنبوة، وما عدا ذلك فمندوبٌ مُرَغَّبٌ فيه، من سُننِ الإسلام وشعار أهله.

وقال القاضي أبو بكر بن بكير: (افترض الله على خلقه أن يصلوا على نبيه ويسلموا تسليمًا، ولم يجعلْ ذلك لوقتٍ معلوم؛ فالواجب أن يُكْثِر المرء منها، ولا يغفُل عنها).

قال القاضي أبو محمد بن نصر: (الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم واجبة في الجملة).

وقال أبو بكر بن المنذر: يستحب ألا يصلِّي أحد صلاةً إلا صلى فيها على رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فإن ترك ذلك فصلاته مُجزئة في مذهب مالك، وأهل المدينة، وسفيان الثوري، وأهل الكوفة من أصحاب الرأي وغيرهم. وهو قولُ جُمَل أهْلِ العلم.

وحُكي عن مالك وسفيان أنها في التشهد الأخير مستحبَّة، وأن تاركها في التشهد مُسيء.

وشذ الشافعي فأوجب على تاركها في الصلاة الإعادة، وأوجب إسحاقُ الإعادة مع تعمد تركها دون النسيان.

فصل: [في المواطن التي يُستحبُّ فيها الصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم]

من ذلك تشهد الصلاة، وذلك بعد التشهُّد وقبل الدعاء:

عن فضالة بن عبيد قال: سمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلًا يدعو في صلاته، فلم يصل على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: {عجل هذا. ثم دعاه فقال له ولغيره: إذا صلى أحدكم فليبدأ بتحميد الله والثناءِ عليه، ثم ليصل على النبي، ثم ليدع بعدُ بما شاء}[1]. ويروى من غير هذا السند بتمجيد الله، وهو أصَح.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: (الدعاء والصلاة معلقٌ بين السماء والأرض، فلا يصعد إلى الله منه شيء حتى يُصلي على النبي صلى الله عليه وسلم)[2].

وعن ابن مسعود: (إذا أراد أحدكم أن يسأل الله شيئًا فليبدأ بمدحه والثناء عليه بما هو أهله، ثم يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم، ثم ليسأل؛ فإنه أجدر أن يُنْجح)[3].

ومن مواطن الصلاة عليه: عند ذكره وسماع اسمه، أو كتابته، أو عند الأذان.

وقد قال صلى الله عليه وسلم: {رغم أنْفُ رجل ذكرت عنده فلم يصل علي}[4].

---

(1) سنن الترمذي (3477) وصححه.

(2) سنن الترمذي (486).

(3) مصنف عبد الرزاق (11/ 162)(20206).

(4) سنن الترمذي (3545)، وقال: (حسن غريب).

وكره ابن حبيب ذكر النبي صلى الله عليه وسلم عند الذَّبح.

قال أصبغ عن ابن القاسم: (موطِنان لا يذكر فيهما إلا الله: الذبيحةُ، والعطاس؛ فلا تقل فيهما بعد ذكر الله: محمد رسول الله).

وروى النسائي عن أوس بن أوس، عن النبي صلى الله عليه وسلم: الأمر بالإكثار من الصلاة عليه يوم الجمعة.

ومن مواطن الصلاة والسلام: دخول المسجد.

ومن مواطن الصلاة عليه أيضًا: الصلاة على الجنائز، وذكر عن أبي أمامة أنها من السنَّة.

ومن مواطن السلام على النبي صلى الله عليه وسلم تشهد الصلاة:

عن عبد الله بن مسعود، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: {إذا صلّى أحدكم فليقل: التحياتُ لله والصلاةُ والطيباتُ، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته. السلامُ علينا وعلى عباد الله الصالحين؛ فإنكم إذا قلتموها أصابت كل عبد صالح في السماء والأرض}.

فصل: [في كيفية الصلاة عليه والتسليم]

عن عمرو بن سليم الزُّرقي قال: أخبرني أبو حميد الساعدي: أنهم قالوا: {يا رسول الله! كيف نصلي عليك؟ فقال: قولوا: اللهم! صل على محمد وأزواجه وذريته، كما صليت على آل إبراهيم، وبارِك على محمد وأزواجه وذريته، كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد}[1].

وعن أبي مسعود الأنصاري مرفوعًا قال: {قولوا: اللهم! صلِّ على محمد وعلى آله، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد، كما باركت على آل إبراهيم في العالمين، إنك حميد مجيد. والسلام كما قد علمتم}.

وفي رواية كعب بن عجرة: {اللهم! صل على محمد وآل محمد، كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمد وآل محمد، كما باركت على إبراهيم، إنك حميد مجيد}.

وعن عقبة بن عمرو في حديثه: {اللهم! صل على محمد النبي الأمي، وعلى آل محمد}[2].

وفي رواية أبي سعيد الخدري: {اللهم! صل على محمد عبدك ورسولك...} وذكر معناه.

وعن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم: {مَنْ سرَّه أن يَكْتَال بالمِكْيَال الأوْفَى إذا صلى علينا أهل البيت فليقُل: اللهم صلِّ على محمد النبيِّ، وأزواجه أمهات المؤمنين، وذريته وأهلِ بيته، كما صليتَ على إبراهيم، إنك حميد مجيد}[3].

وقوله: {والسلامُ كما قد علمتم} هو ما علمهم الله في التشهد من قوله: {السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين}.

---

(1) صحيح مسلم (407)(406).

(2) صحيح مسلم (405).

(3) سنن أبي داود (982).

فصل: [في فضيلة الصلاة على النبي والتسليم عليه والدعاء له]

عن عبد الرحمن بن جبير مولى نافع أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: {إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، وصلوا عليَّ؛ فإنه من صلى علي مرة واحدة صلى الله عليه عشرًا. ثم سلوا لي الوسيلة؛ فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلاّ لعَبْدٍ من عبادِ الله، وأرجو أن أكون أنا هو؛ فمن سأل لي الوسيلةَ حلت عليه الشفاعة}[1].

وعن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: {من صلى علي صلاة صلى الله عليه عشر صلوات، وحط عنه عشر خطيئات، ورفع له عشر درجات}[2]، وفي رواية: {وكتب له عشر حسنات}.

وعن أنس عنه صلى الله عليه وسلم: {إن جبريل ناداني، فقال: من صلى عليك صلاة، صلى الله عليه عشرًا، ورفعه عشر درجات}.

وعن أبي طلحة قال: {دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم، فرأيتُ من بِشْره وطلاقَتِه ما لم أره، فسألته، فقال: وما يمنعني وقد خرج جبريل آنفًا، فأتاني ببشارة من ربي عز وجل: إن الله بعثني إليك أُبشرك، أنه ليس أحدٌ من أمَّتك يصلّي عليك إلا صلى عليه وملائكتُه بها عشرًا}[3].

وعن جابر بن عبد الله قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: {من قال حين يسمعُ النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمدًا الوسيلة والفضِيلة، وابعثه مقامًا محمودًا الذي وَعَدته؛ حلَّت له الشفاعة يوم القيامة}.

وعن سعد بن أبي وقاص: {من قال حين يسمع المؤذن: وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، رضيت بالله ربًا وبمحمد رسولًا، وبالإسلام دينًا؛ غفر له}[4].

فصل: [في ذمِّ من لم يصل على النبي وإثْمه]

عن أبي هُريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {رغم أنف رجُل ذُكِرتُ عنده فلم يصلِّ علي، ورغم أنف رجل دخل رمضان ثم انسلخ قبل أن يغفر له، ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكِبر فلم يُدخلاه الجنة}[5].

وفي حديث آخر: {أن النبي صلى الله عليه وسلم صَعِد المِنْبر فقال: آمين، ثم صعد، فقال: آمين، ثم صعد فقال: آمين، فسأله معاذ عن ذلك، فقال: إن جبريل أتاني فقال: يا محمد! من سميت بين يديه فلم يصل عليك فمات فدخل النار، فأبعده الله؛ قل: آمين. فقلتُ: آمين}.

وقال فيمن أدركَ رمضانَ فلم يُقْبل منه فمات مِثْل ذلك.

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) سنن النسائي (1296).

(3) سنن النسائي (1282، 1294).

(4) صحيح مسلم (386).

(5) سنن الترمذي (3545).

ومن أدرك أبويه أو أحدهما، فلم يَبرّهما فمات مثله.

وعن علي بن أبي طالب، عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: {البخيل كلُّ البخيل، الذي ذُكرتُ عنده فلم يصلِّ عليَّ}[1].

وعن أبي هريرة قال: قال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم: {أيما قوم جلسوا مجلسًا، ثم تفرّقوا قبل أن يذكروا الله ويصلوا على النبي صلى الله عليه وسلم كانت عليهم من الله ترةٌ[2]، إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم}[3].

وعن جابر، عنه صلى الله عليه وسلم: {ما جلس قومٌ مجلسًا ثم تفرقوا على غير صلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، إلا تفرقوا على أنتن من ريح الجيفة}.

وحكى أبو عيسى الترمذي عن بعض أهل العلم قال: (إذا صلى الرجل على النبي صلى الله عليه وسلم مرة في المجلس، أجزأ عنه ما كان في ذلك المجلس).

فصل: [في تخصيصه صلى الله عليه وسلم بتبليغ صلاة من صلى عليه وسلم من الأنام]

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: {ما من أحد يسلم علي، إلا رد الله علي روحي، حتى أرد عليه السلام}[4].

وعن أبي مسعود: {إن لله ملائكة سيَّاحين في الأرض يبلغوني عن أمَّتي السلام}[5].

وعن الحسن بن علي: إذا دخلْتَ المسجد فسلِّم على النبي صلى الله عليه وسلم؛ فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: {لا تتخذوا بيتي عيدًا، ولا تتخذوا بيوتكم قُبُورًا، وصلوا علي حيث كنتم؛ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم}.

وفي حديث أوْس: {أكثروا عليَّ من الصلاة يوم الجمعة؛ فإن صلاتكم معرُوضَةٌ علي}[6].

فصل: [في الاختلاف في الصلاة على غير النبي صلى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء عليهم السلام]

قال القاضي وفقه الله: عامة أهل العلم متفقون على جواز الصلاة على غير النبي صلى الله عليه وسلم.

وقال سُفيان: (يُكره أن يُصلى إلا على نبي).

وقال مالك في "المبسوطة" ليحيى بن إسحاق: (أكْرَهُ الصلاة على غير الأنبياء، وما ينبغي لنا أنْ نتعدى ما أُمِرنا به).

وقال يحيى بن يحيى: (لستُ آخُذ بقوله، ولا بأس بالصلاة على الأنبياء كلهم وعلى غيرهم) واحتج بحديث ابن عمر، وبما جاء في حديث تعليم النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة عليه؛ وفيه: وعلى أزواجه، وعلى آله.

---

(1) سنن الترمذي (3546).

(2) ترة: نقص. وقيل: تبعة.

(3) سنن الترمذي (3380).

(4) سنن أبي داود (2041).

(5) مسند أحمد (1/ 387)، سنن النسائي (1281).

(6) سنن أبي داود (1047)، سنن النسائي (1373 = 1666 في الكبرى).

قالوا: الصلاة في لسان العرب بمعنى الترحّم والدّعاء؛ وذلك على الإطلاق، حتى يمنع منه حديثٌ صحيح أو إجماع.

وقد قال تعالى: ((هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا)) [الأحزاب:43].

وقال: ((خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)) [التوبة:103] وقال: ((أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ)) [البقرة:157].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: {اللهمّ! صل على آل أبي أوفى}[1]، وكان إذا أتاه قوم بصدقتهم، قال: {اللهم! صل على آل فُلان}.

وفي حديث الصلاة: {اللهم صل على محمد، وعلى أزواجه وذريته}.

وفي حديث آخر: {وعلى آل محمد}: قيل هم: أتباعه، وقيل: آل بيته. وقيل: أمَّته. وقيل: أهلُه الذي حُرِّمت عليهم الصدقة.

قال القاضي أبو الفضل: والذي ذهب إليه المحققون، وأميل إليه ما قاله مالك وسفيان رحمهما الله، وقد روي عن ابن عباس، واختاره غيرُ واحد من الفقهاء والمتكلّمين أنّه لا يُصَلَّى على غير الأنبياء عند ذكرهم؛ بل هو شيء يختصُّ به الأنبياء، توقيرًا لهم وتعزيرًا، كما يُخَصُّ الله تعالى عند ذكره بالتنزيه والتقديس والتعظيم، ولا يشاركه فيه غيره، كذلك يجب تخصيص النبي صلى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء بالصلاة والتسليم، ولا يشاركُ فيه سواهم، كما أمر الله به بقوله: ((صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا)) [الأحزاب:56]، ويُذكر من سواهم من الأئمة وغيرهم بالغفران والرِّضا، كما قال تعالى: ((يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ)) [الحشر:10].

وقال: ((وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ)) [التوبة:100] وأيضًا فهو أمر لم يكن معروفًا في الصدر الأول وإنما أحدثته الرافضة والشيعة في بعض الأئمة، فشاركوهم عند الذِّكر لهم بالصلاة، وساوَوْهم بالنبي صلى الله عليه وسلم في ذلك.

وأيضا فإن التشبه بأهل البدع منهي عنه، فتجب مخالفتهم فيما التزموه من ذلك.

وذكر الصلاة على الآل والأزواج مع النبي صلى الله عليه وسلم بحُكْم التَّبع والإضافة إليه لا على التخصيص.

قالوا: وقد قال تعالى: ((لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا)) [النور:63] فكذلك يجب أن يكون الدعاء له مُخالفًا لدعاء الناس بعضهم لبعض، وبهذا قال ابن عبد البر.

فصل: [فيما يلزم مَن دخل مسجد النبي صلى الله عليه وسلم من الأدب]

قال الله تعالى: ((لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ)) [التوبة:108].

---

(1) صحيح البخاري (1497، 4166، 6332، 6359)، صحيح مسلم (1078).

ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل: أي مسجد هو؟ قال: {مسجدي هذا}[1].

وهو قول ابن المسيب، وزيد بن ثابت، وابن عمر، ومالك بن أنس، وغيرهم.

وعن ابن عباس أنه مسجدُ قباء.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ قال: {لا تُشدُّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقْصَى}[2].

وقال مالك رحمه الله: (سمع عُمر بن الخطاب رضي الله عنه صوتًا في المسجد، فدعا بصاحبه؛ فقال: مِمّن أنت؟ قال: رجل من ثقيف، قال: لو كنت من هاتين القريتين لأدّبْتُك؛ إن مسجدنا لا يُرفع فيه الصوتُ)[3].

قال محمد بن مسلمة: (لا ينبغي لأحد أن يعتمد المسجد برفْع الصوت، ولا بشيء من الأذى، وأن يُنزَّهَ عما يُكره).

والعلماءُ كلهم مُتفقون على أن حُكم سائر المساجد هذا الحُكْم.

---

(1) صحيح مسلم (1398).

(2) صحيح مسلم (1397).

(3) صحيح البخاري (470).

القسم الرابع

في تصرف وجوه الأحكام فيمن تنقّصه أو سبّه عليه الصلاة والسلام

قد تقدم من الكتاب والسنة وإجماع الأمة ما يجب من الحقوق للنبي صلى الله عليه وسلم، وما يتعينُ له من بر وتوقير، وتعظيم وإكرام؛ وبحسبِ هذا حرّم الله تعالى أذاهُ في كتابه، وأجمعت الأمةُ على قتْل مُتنقِّصه من المسلمين وسابّه؛ قال الله تعالى: ((إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَّ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُّ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا)) [الأحزاب:57].

وقال تعالى: ((وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهَّ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)) [التوبة:61].

وقال الله تعالى: ((وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهَّ وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللهَّ عَظِيمًا)) [الأحزاب:53].

وقال تعالى في تحريم التعريض به: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ)) [البقرة:104].

وذلك أن اليهود كانوا يقولون: راعنا يا محمد؛ أي: أرْعِنا سَمْعَك، واسمع منا، ويعرِّضُون بالكلمة، يريدون الرّعُونة[1]؛ فنهى الله المؤمنين عن التشبُّه بهم، وقطع الذريعة بنهي المؤمنين عنها؛ لئلا يتوصل بها الكافر والمنافِقُ إلى سبّه والاستهزاء به.

وقيل: بل لِمَا فيها من مُشاركة اللفظ؛ لأنها عند اليهود بمعنى اسمع لا سمعْتَ، وقيل: بل لما فيها من قلّة الأدب، وعدم توقير النبي صلى الله عليه وسلم وتعظيمه؛ لأنها في لغة الأنصار بمعنى ارْعَنَا نَرْعكَ، فنهوا عن ذلك، إذ مُضَمَّنُه أنهم لا يرعونه إلا برعَايته لهم، وهو- صلى الله عليه وسلم- واجبُ الرعاية بكل حال؛ وهذا هو صلى الله عليه وسلم قد نهى عن التّكَنّي بكُنْيَته، فقال: {تسموا باسمي، ولا تكَنّوا بكنيتي}، صيانة لنفسه، وحمايةً عن أذاه؛ إذ كان صلى الله عليه وسلم استجاب لرجل نادى: يا أبا القاسم؛ فقال: لم أعنك، إنما دعوتُ هذا[2]؛ فنهى حينئذ عن التكنّي بكنيته لئلا يتأذى بإجابة دعوةِ غيره لمن لم يدعُه، ويجِد بذلك المنافقون والمستهزئون ذريعة إلى أذاهُ فينادونه، فإذا التفت قالوا: إنما أردنا هذا- لسواهُ- تَعْنيتًا له، واستخفافًا بحقه على عادة المجّان والمستهزئين، فحمى صلى الله عليه وسلم حِمَى أذاه بكل وجهٍ؛ فحمل محقِّقُو العلماء نهيَه عن هذا على مدة حياته، وأجازُوه بعد وفاته لارتفاع العِلة.

وللناس في هذا الحديث مذاهبُ ليس هذا موضعها وما ذكرناه هو مذهب الجمهور، والصواب إن شاء الله، وهو على طريق تعظيمه وتوقيره، وعلى سبيل الندب والاستحباب، لا على التحريم، ولذلك لم ينه عن اسمه؛ لأنه قد كان الله

---

(1) الرعونة: الحمق.

(2) صحيح البخاري (3114، 3115، 3538، 6196، 6187)، صحيح مسلم (2133).

منع من ندائه به بقوله: ((لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا)) [النور:63]؛ وإنما كان المسلمون يدعونه برسول الله، وبنبي الله، وقد يدعُوه –بكنيته: أبا القاسم– بعضُهم في بعض الأحوال.

الباب الأول

في بيان ما هو في حقه صلى الله عليه وسلم سَبٌّ، أو نَقْص من تعريض أو نصّ

اعلم -وفقنا الله وإياك- أنّ من سب النبي صلى الله عليه وسلم، أو عابه، أو ألحق به نقصًا في نفسه أو نسبه أو دينه، أو خصلة من خصاله، أو عرّض به، أو شبَّهَهُ بشيء على طريق السبِّ له، أو الإزراء عليه، أو التصغير لشأنه، أو الغضِّ، والعيب له، فهو سابٌّ له والحكم فيه أنه يُقْتَل كما نُبَيِّنُه، ولا نستثني فصلًا من فصول هذا الباب على هذا المقصد، ولا نمتري فيه تصريحًا كان أو تلويحًا.

وكذلك من لعنه أو دعا عليه، أو تمنى مضرّةً له، أو نسب إليه ما لا يليق بمنْصِبه على طريق الذّمّ، أو عبث في جهتِه العزيزة بسُخْف من الكلام وهُجْر ومُنْكَر من القول وزور، أو عيّره بشيءٍ مما جرى من البلاء والمحنة عليه، أو غَمَصَه ببعض العوارض البشرية الجائزة والمعهودة لديه.

وهذا كله إجماع من العلماء وأئمة الفتوى من لدن الصحابة رضوان الله عليهم إلى هَلمّ جرًّا.

وقال أبو بكر بن المنذر: (أجمع أهل العلم أنّ من سب النبي صلى الله عليه وسلم يُقتل؛ وممّن قال ذلك مالكُ بن أنس، والليث، وأحمد، وإسحاق، وهو مذهب الشافعي).

قال القاضي أبو الفضل: وهو مقتضى قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ولا تقبل توبته عند هؤلاء المذكورين.

وبمثلِه قال أبو حنيفة، وأصحابُه؛ والثوري وأهل الكوفة، والأوزاعي في المسلم، لكنهم قالوا: هي ردَّةٌ.

وعلى هذا وقع الخلاف في استتابته وتكفيره؛ وهل قتله حدٌّ أو كفرٌ، كما سنبينه في الباب الثاني إن شاء الله تعالى، ولا نعلمُ خلافًا في استباحة دمه بين علماء الأمصار وسلَفِ الأمة؛ وقد ذكر غير واحدٍ الإجماع على قتلِه وتكفيره.

قال محمد بن سَحنُون: (أجمع العلماء أن شاتم النبيّ صلى الله عليه وسلم المتنقص له كافرٌ، والوعيد جار عليه بعذاب الله، وحُكْمُه عند الأمة القتل؛ ومن شك في كفره وعذابه كفر).

وقال أبو سليمان الخطّابي: (لا أعلم أحدًا من المسلمين اختلف في وجوبِ قتْلِه إذا كان مسلمًا).

وقال ابن القاسم عن مالك: (من سب النبي صلى الله عليه وسلم من المسلمين قُتِل، ولم يُسْتَتب).

وقال ابن القاسم: (من سَبّه أو شتمه أو عابه أو تنقصه فإنه يُقْتَل، وحُكمُه عند الأمة القتل كالزِّنديق).

وعن أبي المُصْعَب وابن أبي أُوَيس: سمعنا مالكًا يقولُ: (من سبَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو شتَمه، أو عابه، أو تنقَّصَهُ قُتِل مسلمًا كان أو كافرًا، ولا يُسْتتاب).

وفي كتاب محمد: أخبرنا أصحاب مالك أنه قال: (من سبَّ النبي صلى الله عليه وسلم أو غيره من النبيين مِن مسلم أو كافر قُتِل ولم يُسْتَتَب).

وقال أصبغ: (يُقْتَل على كل حال: أسرَّ ذلك أو أظهره، ولا يستتاب؛ لأن توبته لا تعرفُ).

وروَى ابن وهْب عن مالك: من قال: (إن رداء النبيِّ صلى الله عليه وسلم وسِخٌ؛ وأراد عَيْبَه قُتِل).

قال بعض علمائنا: أجمع العلماء على أن من دعا على نبيٍّ من الأنبياء بالوَيْل، أو بشيء من المكروه أنّه يقتل بلا استتابةٍ.

وقال ابنُ عتّاب: (الكتاب والسنة مُوجبان أنّ من قصد النبي صلى الله عليه وسلم بأذى أو نقص، معرضًا أو مصرّحًا، وإن قلَّ فقتْلُه واجبٌ).

وكذلك حكمُ من غمصهُ أو عيّره برعاية الغَنم، أو السّهو، أو النسيان، أو السّحْرِ، أو ما أصابه من جُرح أو هزيمة لبعض جيوشه، أو أذىً مِن عدوِّه، أو شدةٍ من زمَنِه، أو بالمَيْل إلى نسائه؛ فحكم هذا كله لمن قصد به نقصه القتلُ.

فصل: [في الحجة في إيجاب قتل من سبَّه أو عابه صلى الله عليه وسلم]

فمن القرآن: لَعْنُه تعالى لمُؤْذيه في الدنيا والآخرة، وقِرانُه تعالى أذاهُ بأذاه، ولا خلاف في قتل من سب الله، وأنّ اللعن إنما يستوجبُه من هو كافرٌ، وحُكْمُ الكافر القتل؛ فقال: ((إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَّ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُّ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا)) [الأحزاب:57].

وقال الله تعالى: ((لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا * مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا)) [الأحزاب:60-61].

وقال في المحاربين: ((إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَّ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا)) [المائدة:33].

وقد يقع القتل بمعنى اللّعنِ؛ قال الله تعالى: ((قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ)) [الذاريات:10]. و ((قَاتَلَهُمُ اللهُّ أَنَّى يُؤْفَكُونَ)) [التوبة:30]؛ أي: لعنهم الله، ولأنه فرق بين أذاهما وأذى المؤمنين؛ وفي أذى المؤمنين ما دُون القتل، من الضرب والنّكالِ، فكان حُكْمُ مُؤْذِي الله ونبيّه أشد من ذلك؛ وهو القتل. وقال تعالى: ((فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا)) [النساء:65].

فسلب اسم الإيمان عمّن وجَد في صدره حرجًا من قضائه، ولم يسلِّم له؛ ومَن تنقّصَه فقد ناقض هذا.

وقال الله تعالى: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ)) [الحجرات:2].

ولا يُحبِط العمَل إلا الكفْرُ؛ والكافرُ يُقتل.

وقال تعالى: ((وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللهُّ)) ثم قال ((حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ)) [المجادلة:8].

وقال تعالى: ((وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ)) ثم قال: ((وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِّ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)) [التوبة:61].

وقال تعالى: ((وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِّ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لا تَعْتَذِرُوا قَدْ

كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ)) [التوبة:65-66].

قال أهلُ التفسير: كفرتم بقولكم في رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأما الإجماع فقد ذكرناه.

وأما الآثار ففي الحديث الصحيح: أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتل كعب بن الأشرف وقال: {مَنْ لكعب بن الأشرف؛ فإنه يؤذي الله ورسوله}[1]، ووجّه إليه مَن قتله غِيلة دون دَعوةٍ، بخلاف غيره من المشركين؛ وعلّل قتله بأذاه له؛ فدلّ أن قَتْلَه إياهُ لغير الإشراك؛ بل للأذى.

وكذلك قتل أبا رافع، قال البراء: (وكان يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويُعين عليه)[2].

وكذلك أمْرُه يوم الفتح بقتل ابن خطل وجاريَتَيْهِ اللتين كانتا تُغَنِّيان بسبِّه صلى الله عليه وسلم.

وكذلك لم يُقِل جماعة ممن كان يُؤذِيه من الكفار ويسُبُّه كالنّضْر بن الحارث، وعُقبة بن أبي مُعَيْط.

وعهِد بقتل جماعةٍ منهم قبل الفتح وبعده، فقُتلوا إلا من بادر بإسلامه قبل القدرة عليه.

وبلغ المهاجر بن أبي أمية أمير اليمن لأبي بكر رضي الله عنه أن امرأةً هناك في الردّة غنت بسبِّ النبي صلى الله عليه وسلم، فقطع يدها، ونزع ثَنِيّتها، فبلغ أبا بكر رضي الله عنه ذلك، فقال له: (لولا ما فعلت لأمرتُك بقتلها؛ لأن حد الأنبياء ليس يشبهُ الحدود).

وعن ابن عباس أن أعمى كانت له أُمُّ ولدٍ تسبُّ النبي صلى الله عليه وسلم فيزجُرها فلا تنزجر، فلما كانت ذات ليلة جعلت تقَعُ في النبي صلى الله عليه وسلم وتشتمه، فقتلها، وأعلم النبي صلى الله عليه وسلم بذلك، فأهدر دمها[3].

وعن أبي برزة الأسلمي قال: (أتيتُ أبا بكر، وقد أغلظ لرجل فردّ عليه، قال: فقلتُ: يا خليفة رسول الله! دعني أضرب عنقه، فقال: اجلس؛ فليس ذلك لأحد إلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم)[4].

قال القاضي أبو محمد بن نصر: (ولم يخالِفْ عليه أحد؛ فاستدلّ الأئمةُ بهذا الحديث على قتْل من أغضب النبي صلى الله عليه وسلم بكل ما أغضبه أو آذاه أو سبّه).

ومن ذلك كتابُ عمر بن عبد العزيز إلى عامله بالكوفة، وقد استشاره في قتْلِ رجل سب عمر رضي الله عنه، فكتب إليه عمر: (إنه لا يحل قتل امرئ مسلم بسبِّ أحد من الناس إلا رجلًا سبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فمن سبّهُ فقد حلّ دمُه).

---

(1) صحيح البخاري (2510، 3031، 3032، 4037)، صحيح مسلم (1801).

(2) صحيح البخاري (4038، 4039، 4040).

(3) سنن النسائي (4081).

(4) سنن النسائي (4083).

وسأل الرشيدُ مالكًا في رجل شتم النبي صلى الله عليه وسلم، وذكر له أنّ فقهاء العراق أفتوْه بجلده؛ فغضب مالك، وقال: يا أمير المؤمنين! ما بقاء الأمة بعد شتم نبيها؟! من شَتَم الأنبياء قُتِل، ومن شتم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم جُلِد).

قال القاضي أبو الفضل رحمه الله تعالى: كذا وقع في هذه الحكاية، رواها غيرُ واحد من أصحاب مناقب مالك ومؤلِّفي أخباره وغيرهم؛ ولا أدري من هؤلاء الفقهاءِ بالعراق الذين أفتوا الرشيد بما ذكر! وقد ذكرنا مذهب العراقيين بقتله، ولعلّهم ممن لم يُشهَر بعلم، أو من لا يُوثق بفتواه، أو يميلُ به هَوَاهُ، أو يكون ما قاله يُحْمَل على غير السبِّ، فيكون الخلافُ: هل هو سَبٌّ أو غير سب؟ أو يكون رجع وتاب من سبِّه، فلم يقُله لمالك على أصله؛ وإلا فالإجماعُ على قتْل من سبّهُ كما قدّمْنّاهُ.

ويدلُّ على قَتْله مِن جهة النَّظر والاعتبار أن من سبّهُ أو تنقَّصه صلى الله عليه وسلم فقد ظهرت علامةُ مرض قلبه، وبُرهانُ سِرِّ طَوِيّته وكفره، ولهذا ما حكم له كثيرٌ من العلماء بالردة، وهي رواية الشاميين عن مالك والأوزاعي، وقول الثوري، وأبو حنيفة، والكوفيين.

والقول الآخر أنه دليل على الكفر، فيقتل حدًا، وإن لم يحكم له بالكُفر إلا أن يكون متماديًا على قوله، غيرَ مُنْكِر له، ولا مقلع عنه؛ فهذا كافر؛ وقولُه: إما صَرِيحُ كُفْر كالتكذيب ونحوه، أو من كلمات الاستهزاء والذمّ، فاعترافُه بها وتركُ توبته عنها دليل استحلاله لذلك، وهو كُفرٌ أيضًا؛ فهذا كافر بلا خلاف؛ قال الله تعالى في مِثلِه: ((يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ)) [التوبة:74].

فصل: [الوجه الثاني: إذا كان غير قاصد]

تقدم الكلام في قتل القاصد لسبّه والإزراء به وغمْصه، بأي وجه كان من مُمْكِن أو محال؛ فهذا وجهٌ بيّن لا إشكال فيه.

الوجه الثاني لاحِقٌ به في البيان والجلاء؛ وهو أن يكون القائل لما قال في جِهَته صلى الله عليه وسلم غير قاصد للسب والإزراء، ولا معتقدٍ له، ولكنه تكلم في جهته صلى الله عليه وسلم بكلمة الكفر؛ من لَعْنِه أو سبِّه أو تكذيبه أو إضافة ما لا يجوز عليه، أو نفى ما يجب له مما هو في حقه صلى الله عليه وسلم نقيصة؛ مثل أن ينسُب إليه إتيان كبيرة، أو مداهنة في تبليغ الرسالة، أو في حُكم بين الناس، أو يغُضُّ من مرْتَبته، أو شرف نسبِه، أو وُفور علمه أو زُهْده، أو يكذِّب بما اشتهر من أُمور أخبر بها صلى الله عليه وسلم، وتواتر الخبرُ بها عنه عن قصْدٍ لردِّ خبره، أو يأتي بسفهٍ من القول، وقبيح من الكلام، ونوع من السبِّ في جهته، وإن ظهر بدليل حاله أنه لم يعتمدْ ذمَّه، ولم يقصد سبَّه، إما لجهالةٍ حملتهُ على ما قاله، أو لضَجَر، أو قلة مُراقبة وضبط للسانه وعَجْرَفةٍ وتهور في كلامه، فحكم هذا الوجه حُكم الوجه الأول القتل دون تلعثُم؛ إذ لا يُعذرُ أحدٌ في الكُفْرِ بالجهالة، ولا بدعوى زلل اللسان، ولا بشيء مما ذكرناه؛ إذ كان عقله في فطرته سليمًا، إلا من أكره وقلبه مطمئنٌّ بالإيمان، وبهذا أفتى الأندلسيّون على ابن حاتم في نفيه الزُّهد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قدمناه.

وعن أبي محمد بن أبي زيد: (لا يُعذرُ بدعوى زلل اللسان في مثل هذا).

فصل: [الوجه الثالث: أن يقصد إلى تكذيبه فيما قاله وأتى به]

الوجه الثالث: أن يقصد إلى تكذيبه فيما قاله وأتى به، أو ينفي نبوّتَه أو رسالته، أو وجوده، أو يكفُرَ به، انتقل بقوله ذلك إلى دين آخر غير مِلّتِه أم لا؛ فهذا كافرٌ بإجماع، يجبُ قتلُه، ثم ينظر، فإن كان مُصَرِّحًا بذلك كان حكمُه أشبه بحكم المرتد، وقوي الخلافُ في استتابته.

وعلى القول الآخر لا يُسقطُ عنه توبتُه لحق النبي صلى الله عليه وسلم، إن كان ذكره بنقيصة فيما قاله من كذب أو غيره، وإن كان مُستسِرًّا بذلك فحُكمُه حكم الزنديق لا تُسقِطُ قَتْلَه التوبة عندنا كما سنبينه.

قال أبو حنيفة وأصحابه: من برئ من محمد، أو كذب به، فهو مرتد حلال الدم إلا أن يرجع.

وقال ابن القاسم في المسلم إذا قال: إن محمدًا ليس بنبي، أو لم يرسل، أو لم يُنزَل عليه قرآن، وإنما هو شيء تقوّله: (يُقْتَل).

وكذلك قال فيمن تنبأ، وزعم أنهُ يوحى إليه، وقاله سحنون.

قال أصْبغ: (وهو كالمرتد؛ لأنه قد كفر بكتاب الله مع الفِرْية على الله).

وقال أشهَب في يهوديّ تنبَّأ أو زعم أنه أُرسِل إلى الناس، أو قال: بعد نبيّكم نبيٌّ: (أنه يُستتاب إن كان مُعلنًا بذلك؛ فإن تاب وإلا قُتل؛ وذلك لأنه مكذِّبٌ للنبي صلى الله عليه وسلم في قوله: {لا نبيّ بعدي}، مُفْترٍ على الله في دعْواهُ عليه الرسالة والنبوّة).

وقال محمد بن سَحْنُون: (مَن شك في حرفٍ مما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم عن الله فهو كافرٌ جاحدٌ).

وقال: (من كذّب النبي صلى الله عليه وسلم كان حكمُه عند الأمةِ القتلَ).

فصل: [أن يأتي من الكلام بمجمل ويلفظ من القول بمشكل يمكن حمله على النبي أو غيره]

الوجه الرابع: أن يأتي من الكلام بمُجْمَل، وبلفظ من القول بمُشْكل يمكن حملُه على النبي صلى الله عليه وسلم أو غيره، أو يتردد في المراد به من سلامته من المكروه أو شرِّه؛ فها هنا مُتردَّد النظر وحيرَةُ العِبَر، ومَظِنَّة اختلاف المجتهدين، ووقفَةُ استبراءِ المقلّدين؛ لِيَهْلِك من هلك عن بيِّنة، ويحيا من حيّ عن بينة؛ فمنهم من غلَّب حُرمة النبي صلى الله عليه وسلم، وحمى حِمى عِرضِه، فجَسر على القتل؛ ومنهم من عظّم حُرْمة الدم، ودرأ الحدّ بالشُّبهَة؛ لاحتمال القول.

وقد اختلف أئمتنا في رجل أغضبه غريمه، فقال له: صَلّ على النبي محمد؛ فقال له الطالبُ: لا صلّى الله على من صلّى عليه؛ فقيل لسَحْنُون: هل هو كمن شتَم النبي صلى الله عليه وسلم، أو شتم الملائكة الذين يصلون عليه؟! قال: (لا، إذا كان على ما وصَفْتَ من الغضب؛ لأنه لم يكن مُضْمرًا الشّتْم).

وقال أبو إسحاق البَرْقي، وأصبغ بن الفرج: (لا يُقْتَلُ؛ لأنه إنما شتَم الناس) وهذا نحوُ قول سَحْنُون؛ لأنه لم يعذرْه بالغضب في شتم النبي صلى الله عليه وسلم، ولكنه لما احتمل الكلام عنده، ولم تكن معه قرينةٌ على شتم النبي صلى الله

عليه وسلم، أو شتم الملائكة صلوات الله عليهم؛ ولا مُقدِّمةٌ يُحمَل عليها كلامه؛ بل القرينةُ تدل على أن مراده الناسُ غيرُ هؤلاء؛ لأجل قول الآخر له: صلِّ على النبيِّ، فحمل قولُه وسبُّه لمن يُصَلِّي عليه الآن لأجل أمْرِ الآخر له بهذا عند غَضبه.

هذا معنى قول سحنون؛ وهو مطابق لعلة صاحبيه.

وذهب الحارث بن مسكين القاضي وغيره في مثل هذا إلى القتل.

وحكي عن أبي محمد بن أبي زيد رحمه الله فيمن قال: لعن الله العرب، ولعن الله بني إسرائيل، ولعن الله بني آدم، وذكر أنه لم يرد الأنبياء، وإنما أردت الظالمين منهم، أن عليه الأدب بقدر اجتهاد السلطان.

فصل: [الوجه الخامس: ألا يقصد نقصًا]

الوجه الخامس: ألا يَقْصد نقصًا، ولا يذكر عيبًا ولا سبًّا، لكنه ينزعُ بذكْر بعضِ أوصافه، أو يستشهدُ ببعض أحواله صلى الله عليه وسلم الجائزة عليه في الدنيا على طريق ضرب المثل، والحجة لنفسه أو لغيره، أو على التشبّه به، أو عند غضاضة لِحَقَتْهُ، ليس على طريق التأسّي وطريق التحقيق؛ بل على مَقْصِد الترفيع لنفسه أو لغيره، أو على سبيل التمثيل وعدم التّوقير لنبيّه صلى الله عليه وسلم، أو على قصْد الهَزْل والتنديد بقوله، كقول القائل: (إن قيل فيّ السوء فقد قيل في النبي)، و(إن كُذّبْتُ فقد كُذِّب الأنبياء)، أو (إن أذنبتُ فقد أذنبوا)، أو (أنا أسْلَمُ من ألسنةِ الناس ولم يسلم منهم أنبياء الله ورسله)، أو (قد صبرتُ كما صبر أولو العزم، أو كصبر أيوب).

فهذا الكلام وإن لم يَتَضَمّن سبًّا، ولا أضاف إلى الملائكة والأنبياء نقصًا، فما وقّر قائله النبوة، ولا عظَّم الرسالة، ولا عزَّز حرمة الاصطفاء، ولا عزَّز حُظْوة الكرامة حتى شبّه من شبه في كرامةٍ نالها، أو معرّة قصد الانتفاءَ منها، أو ضرب مثلٍ لتطييب مجلسه، أو إغلاء في وصف لتحسين كلامه بمن عظَّم الله خطَره، وشرّف قدره، وألزم توقِيْره وبِرَّه، ونهى عن جهر القول له، ورفع الصوتِ عنده.

فحق هذا إن دُرِئ عنه القَتْلُ الأدبُ والسجنُ وقوةُ تعزيره بحسب شُنْعةِ مقاله، ومقتضى قبح ما نطق به، ومألوف عادته لمثله، أو نُدورِه، وقرينةِ كلامه، أو ندمِه على ما سبق منه؛ ولم يزل المتقدمون ينكرون مثل هذا ممن جاء به.

روى ابن أبي مريم عن مالك في رجُل عيّر رجُلًا بالفقر؛ فقال:

(تعيّرني بالفقر وقد رعى النبيُّ صلى الله عليه وسلم الغنم؟ فقال مالك: قد عرَّض بذكر النبي صلى الله عليه وسلم في غير مَوْضِعه؛ أرى أن يؤدّب؛ قال: ولا ينبغي لأهل الذنوب إذا عُوتبوا أن يقولوا: قد أخطأت الأنبياءُ قَبْلنا).

وقال عمر بن عبد العزيز لرجل: (انظُر لنا كاتبًا يكون أبوهُ عربيًّا، فقال كاتبٌ له:

قد كان أبو النبيّ كافرًا، فقال: جعلت هذا مثلًا فعزله؛ وقال: لا تكتب لي أبدًا).

وسُئل القابسيُّ عن رجل قال لرجل قبيح: (كأنه وجهُ نَكِير، ولرجل عبُوس: كأنه وجهُ مالك الغضبان؛ فقال: أي شيء أراد بهذا؛ ونكيرٌ أحدُ فتّاني القبر، وهما مَلَكَان، فما الذي أراد؟! أروعٌ دخل عليه حين رآه من وجهه، أم عاف النظر إليه لدمامة خلقه؟ فإن كان هذا فهو شديد، لأنه جرى مجْرى التحقير والتّهْوين؛ فهو أشدُّ عقوبةً؛ وليس فيه تصريحٌ

بالسب للملك؛ وإنما السب واقعٌ على المخاطب. وفي الأدب بالسّوط والسجن نكالٌ للسفهاء).

فصل: [الوجه السادس: أن يقول ذلك حاكيًا عن غيره]

الوجه السادس: أن يقول القائل ذلك حاكِيًا عن غيره، وآثِرًا له عن سواه؛ فهذا يُنظَر في صورة حكايته وقرينة مقالتِه؛ ويختلفُ الحكمُ باختلاف ذلك على أربعة وجوه: الوجوبُ، والندب، والكراهة، التحريم؛ فإن كان أخبر به على وجه الشهادة والتعريف بقائله، والإنكار والإعلام بقوله، والتنفير منه، والتجريح له؛ فهذا مما ينبغي امتثاله، ويُحمد فاعله؛ وكذلك إن حكاه في كتاب أو في مجلسٍ على طريق الردّ له والنّقض على قائله، وللفُتْيا بما يلزمُه.

وهذا منه ما يجبُ، ومنه ما يستحبّ بحسب حالات الحاكي لذلك والمحكيّ عنه؛ فإن كان القائل لذلك ممن تصدى لأن يُؤخذ عنه العلم أو رِوايةُ الحديث، أو يُقطع بحكمه أو شهادته، أو فُتْياه في الحقوق؛ وجب على سامعه الإشادةُ بما سمع منه، والتنفير للناس عنه، والشهادة عليه بما قاله، ووجب على من بلغهُ ذلك من أئمة المسلمين إنكارُه، وبيانُ كُفْرِه، وفسادُ قوله، لقطع ضرره عن المسلمين، وقيامًا بحقِّ سيد المرسلين؛ وكذلك إن كان ممن يَعِظُ العامَّة، أو يؤدبُ الصبيان؛ فإنَّ من هذه سريرته لا يُؤمن على إلقاء ذلك في قلوبهم، فيتأكد في هؤلاء الإيجاب لحق النبي صلى الله عليه وسلم، ولحقِّ شريعته.

وإن لم يكن القائل بهذه السبيل فالقيامُ بحقّ النبي صلى الله عليه وسلم واجبٌ، وحمايةُ عِرْضِه مُتَعيّن، ونصرتُه عن الأذى حيًّا وميتًا مستحقٌّ على كل مؤمن؛ لكنه إذا قام بهذا من ظهر به الحق، وفُصلت به القضية، وبان به الأمر سقط عن الباقي الفرضُ، وبَقِي الاستحبابُ في تكثير الشهادة عليه، وعضد التحذير منه.

وقد أجمع السلف على بيان حال المتّهم في الحديث، فكيف بمثل هذا؟

وأما الإباحةُ لحكاية قوله لغير هذين المقصدين، فلا أرى لها مدخلًا في هذا الباب، فليس التفكّه بعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم، والتّمَضمض بسوء ذكره لأحدٍ، لا ذاكِرًا ولا آثرًا لغير غرض شرعي بمُبَاح.

وأما للأغراض المتقدمة فمتردِّدُ بين الإيجاب والاستحباب.

وقد حكى الله تعالى مقالات المفترين عليه وعلى رسله في كتابه على وجه الإنكار لقولهم، والتحذير من كفرهم، والوعيد عليه، والرد عليهم بما تلاه الله علينا في مُحْكَم كتابه.

وكذلك وقع من أمثاله في أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم الصحيحة على الوجوه المتقدمة، وأجمع السلف والخلف من أئمة الهدى على حكايات مقالات الكفرة والملحدين في كُتبهم ومجالسهم ليُبيِّنوها للناس، وينقضوا شُبهها عليهم.

هذه الوجوة السائغة الحكايةُ عنها؛ فأما ذكرُها على غير هذا من حكاية سبِّه والإزراء بمَنصِبه على وجه الحكايات والأسمار والطرف، وأحاديث الناس ومقالاتهم في الغث والسمين، ومضاحك المُجّان، ونوادر السُّخفاء، والخوض في قيل وقال، وما لا يعني؛ فكل هذا ممنوع، وبعضه أشد في المنع والعقوبة من بعض.

فما كان من قائله الحاكي له على غير قصد أو معرفة بمقدار ما حكاهُ، أو لم تكن عادتُه، أو لم يكن الكلام من البشاعة حيث هُو، ولم يظهر على حاكيه استحسانه واستصوابُه؛ زُجِرَ عن ذلك، ونُهي عن العودة إليه؛ وإن قُوِّمَ ببعض الأدب فهو مستوجبٌ له، وإن كان لفظه من البشاعة حيثُ هو كان الأدبُ أشدَّ.

وإن اتُّهم هذا الحاكي فيما حكاه أنه اختلقَهُ، ونسبه إلى غيره، أو كانت تلك عادة له، أو ظهر استحسانه لذلك، أو كان مُولعًا بمثله، والاستخفاف له، أو التحفظ لمثله وطلبه، وروايةِ أشعار هَجْوِه صلى الله عليه وسلم وسبِّه، فحكمُ هذا حُكم السابِّ نفسِه، يؤاخذ بقوله، ولا تنفعه نسبته إلى غيره، فيبادر بقتلِه ويعجّل إلى الهاوية أمَّه.

قال أبو عُبيد القاسم بن سلاّم فيمن حفظ شطر بيت مما هُجِي به النبيُّ صلى الله عليه وسلم فهو كُفْر.

وقد ذكر بعض من ألف في الإجماع إجماع المسلمين على تحريم رواية ما هُجِي به النبي صلى الله عليه وسلم، وكتابته وقراءته، وتركه متى وُجِد دون مَحْو، ورَحِم الله أسلافَنا المتّقين المتحرّزين لدينهم؛ فقد أسقطوا من أحاديث المغازي والسِّيَر ما كان هذا سبيلَه، وتركوا روايته إلاّ أشياء ذكروها يسيرة وغير مُسْتَبْشَعة، على نحو الوجوه الأُوَل، ليُرُوا نقمةَ الله من قائلها، وأخذه المُفْتَرِي عليه بذنبه.

فصل: [الوجه السابع: أن يذكر ما يجوز على النبي، أو يختلف في جوازه]

الوجه السابع: أن يذكُرَ ما يجوز على النبي صلى الله عليه وسلم، أو يُختلفُ في جوازه عليه، وما يطرأ من الأمور البشرية به، وتُمكِنُ إضافتها إليه، أو يذكر ما امتُحن به، وصبر في ذات الله على شدّته من مقاساة أعدائه، وأذاهم له، ومعرفة ابتداءِ حاله وسيرته، وما لقيهُ من بؤس زَمنه، ومر عليه من مُعاناة عيشِه؛ كلُّ ذلك على طريق الرواية، ومذاكرة العلم، ومعرفة ما صحت منه العصمةُ للأنبياء، وما يجوز عليهم؛ فهذا فنٌّ خارجٌ عن هذه الفنون الستّة؛ إذ ليس فيه غمصٌ ولا نقص، ولا إزراء ولا استخفاف، لا في ظاهر اللفظ ولا في مقصد اللاّفظ؛ لكن يجب أن يكون الكلام فيه مع أهل العلم وفُهماء طلبة الدين، ممّن يفهمُ مقاصدهُ، ويحقّقون فوائده؛ ويجنَّبُ ذلك من عساهُ لا يفقه، أو يُخشى به فتنتُه.

فقد قال صلى الله عليه وسلم مخبرًا عن نفسه باستيجاره لرعاية الغنم في ابتداء حاله، وقال صلى الله عليه وسلم: {ما من نبي إلاّ وقد رعى الغنم}[1]، وأخبرنا الله تعالى بذلك عن موسى عليه السلام، وهذا لا غضاضةَ فيه جملةً واحدة لمن ذكرهُ على وَجهه، بخلاف من قصد به الغضاضةَ والتحقير؛ بل كانت عادة جميع العرب، وفي ذلك للأنبياء حكمةٌ بالغةٌ، وتدريجٌ لله تعالى لهم إلى كرامته، وتدريب برعايتها لسياسة أُممهم من خليقته بما سبق لهم من الكرامة في الأزل، ومتقدم العلم.

وكذلك قد ذكر الله يُتْمَه وعَيْلَتَهُ على طريق المنة عليه، والتعريف بكرامته له؛ فذكر الذاكر لها على وجه تعريفِ حاله، والخبر عن مُبْتَدئه، والتعجُّب من مِنَحِ الله قِبَله، وعظيم منَّتِه عنده ليس فيه غضاضة، بل فيه دلالة على نبوته وصحة دعوته؛ إذ أظهره الله تعالى بعد هذا على صناديد العرب، ومن ناوأه من أشرافهم شيئًا فشيئًا، ونمّى أمرَه حتى قهرهم،

(1) صحيح مسلم (2050).

وتمكن من ملك مقاليدهم، واستباحة ممالك كثير من الأُمم غيرهم؛ بإظهار الله تعالى له، وتأييده بنصره وبالمؤمنين، وألف بين قلوبهم، وإمدادِه بالملائكة المسوّمين؛ ولو كان ابنَ مَلِكٍ أو ذا أشياع متقدّمين لحَسِب كثير من الجهّال أن ذلك مُوجب ظهوره، ومُقْتضى عُلُوّه؛ ولهذا قال هِرَقل حين سأل أبا سفيان عنه: (هل في آبائه من مَلِك؟ فقال: لا). ثم قال: (ولو كان في آبائه ملك لقلنا: رجل يطلب ملك أبيه).

وكذلك إذا وُصف بأنه أُميٌّ كما وصفه الله به؛ فهي مدحةٌ له وفضيلةٌ ثابتةٌ فيه، وقاعدة معجزته؛ إذ معجزته العظمى في القرآن العظيم إنما هي متعلقة بطريق المعارف والعلوم، مع ما مُنِح صلى الله عليه وسلم، وفُضِّل به من ذلك، كما قدَّمناهُ في القسم الأول، ووجودُ مِثل ذلك من رجُل لم يقرأ ولم يكتُبْ ولم يُدَارِس ولا لُقِّنَ؛ مُقْتَضى العجب، ومُنْتَهى العِبَر، ومعجزةُ البشَر، وليس في ذلك نقِيصة؛ إذ المطلوب من الكتابة والقراءة المعرفة، وإنما هي آلة لها، وواسطة موصلة إليها غير مرادة في نفسها، فإذا حصلت الثمرةُ والمطلوبُ استُغني عن الواسطةِ والسَّبب.

والأُمِّيّة في غيره نقيصةٌ؛ لأنها سبب الجهالة، وعُنْوانُ الغَبَاوةِ؛ فسبحان من بايَنَ أمره من أمر غيره، وجعل شرفَه فيما فيه محطّةُ سِوَاهُ، وجعل حياته فيما فيه هلاك من عداهُ!! هذا شقُّ قلبه، وإخراجُ حُشْوتِه، كان تمام حياته، وغاية قوةِ نفسِه، وثبات روعِه، وهو فيمن سواه مُنْتهى هلاكِه وحَتم موته وفنائه، وهلم جرا إلى سائر ما رُوي من أخباره وسيره، وتقلّلِه من الدنيا ومن الملبس والمطعم والمركب، وتواضُعه ومَهْنَته نفسَه في أموره، وخدمة بيْته؛ زُهدًا ورغبة عن الدنيا، وتسوية بين حقيرها وخطيرها؛ لسرعة فناء أمورها، وتقلُّب أحوالها، كلُّ هذا من فضائله ومآثره وشرفِه كما ذكرناه؛ فمن أورد شيئًا منها مورِدَه وقصد بها مقصِده كان حسنًا، ومن أورد ذلك على غير وجهه، وعُلم منه بذلك سوءُ قصده لحق بالفصول التي قدمناها.

وكذلك ما وردَ من أخباره وأخبار سائر الأنبياء عليهم السلام في الأحاديث، مما في ظاهره إشكال يقتضي أمورًا لا تليق بهم بحال، ويحتاج إلى تأويل وتردُّدِ احتمال؛ فلا يجبُ أن يُتحدَّث منها إلا بالصحيح، ولا يُرْوى منها إلا المعلومُ الثابت.

ورحم الله مالكًا، فلقد كره التحدث بمثل ذلك من الأحاديث الموهمة للتشبيه والمشكلة المعنى؛ وقال: (ما يدعُو إلى التحدث بمثلِ هذا؟ فقيل له: إن ابنَ عجْلان يحدث بها، فقال: لم يكن من الفُقَهاء).

وليت الناس وافقُوه على ترك الحديثِ بها، وساعدوه على طيها، فأكثرُها ليس تحته عمل.

فأما ما لا يصحُّ من هذه الأحاديث فواجبٌ ألا يُذكر منها شيء في حق الله ولا في حق أنبيائه، ولا يُتَحدث بها، ولا يُتكلّف الكلامُ على معانيها، والصواب طرحُها، وترك الشُّغل بها إلا أن تُذكر على وجه التعريف بأنها ضعيفة المَقادِ، واهيةُ الإسناد.

وقد أنكر الأشياخ على أبي بكر بن فورك تكلُّفه في مُشكِله الكلام على أحاديث ضعيفة موضوعة لا أصل لها، أو منقولة عن أهل الكتاب الذين يلبِسُون الحق بالباطل كان يكفيه طرحُها، ويُغنيه عن الكلام التنبيهُ على ضعفها.

فصل: [الالتزام عند ذكر النبي بالواجب من توقيره وتعظيمه]

ومما يجبُ على المتكلم فيما يجوز على النبي صلى الله عليه وسلم وما لا يجوز؛ والذاكرُ من حالاته ما قدّمناه في الفصل قَبْل هذا على طريق المذاكرة والتعليم؛ أن يلتزِمَ في كلامه- عند ذكره صلى الله عليه وسلم، وذكر تلك الأحوال- الواجب من توقيره وتعظيمه، ويراقب حال لسانه، ولا يُهْمِله، وتظهر عليه علاماتُ الأدب عند ذكره؛ فإذا ذكر ما قاساه من الشدائد ظهر عليه الإشفاق والإرتماضُ، والغيظ على عدوه، ومودة الفداء للنبي صلى الله عليه وسلم لو قدر عليه، والنُّصرةُ له لو أمكنتْه.

وإذا أخذ في أبواب العصمة، وتكلّم على مجاري أعماله وأقواله صلى الله عليه وسلم تحرّى أحسن اللفظ وأدب العبارة ما أمكنه، واجتنب بَشِيع ذلك، وهجر من العبارةِ ما يقبُح؛ كلفظَةِ الجهل والكذب والمعصية.

وإذا كان مثل هذا بين الناس مستعملًا في آدابهم وحسن معاشرتهم وخطابهم؛ فاستعماله في حقه صلى الله عليه وسلم أوجب، والتزامُه آكد.

فجودة العبارة تُقَبِّحُ الشيء أو تُحَسِّنه، وتحريرُها وتهذيبُها تُعظِّم الأمرَ أو تهوِّنُه؛ ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: {إنّ من البيان لسحرًا}[1].

فأما ما أورده على جهة النفي عنه والتنزيه فلا حرج في تسريح العبارة وتصريحها فيه، كقوله: لا يجوز عليه الكذب جملة، ولا إتيان الكبائر بوجْه، ولا الجَوْر في الحكم على حال؛ ولكن مع هذا يجب ظهور توقيره وتعظيمه عند ذِكره مجرّدًا؛ فكيف عند ذكر مثل هذا؟!

---

(1) صحيح البخاري (5767).

الباب الثاني

في حكم سابِّه وشانئه ومتنقّصه ومُؤْذيه وعُقوبتِه

قد قدمنا ما هو سبٌّ وأذىً في حقّه صلى الله عليه وسلم، وذكرنا إجماع العلماء على قتل فاعلِ ذلك وقائلِه، أو تخيير الإمام في قتْلِه أو صَلبِه على ما ذكرناه، وقرّرْنا الحُجَجَ عليه.

وبعد فاعلم أنَّ مشهور مذهَبِ مالك وأصحابه، وقول السَّلف وجمهورِ العلماء قتلُه حدًّا لا كُفْرًا إن أظهر التوبة منه؛ ولهذا لا تُقبل عندهم تَوْبتُه، ولا تنفعُهُ استقالتُه ولا فيئتُه كما قدمناهُ قبلُ، وحُكمُه حكم الزِّنديق، ومُسِرّ الكفر في هذا القول؛ وسواءٌ كانت توبتُه على هذا بعد القدرة عليه والشهادة على قوله، أو جاء تائبًا مِن قِبَل نفْسه؛ لأنه حد لا تُسْقِطُه التوبةُ كسائر الحدود.

قال الشيخ أبو الحسن القابسيّ رحمه الله: إذا أقرَّ بالسّبّ، وتاب مِنهُ، وأظهر التوبة؛ قُتِل بالسّبِّ؛ لأنه هو حَدُّه، وقال أبو محمد بن أبي زيد في مثله، وأما ما بينه وبين الله فتوبتُه تَنْفَعه.

فصل: [حكم الذمي إذا صرح بسبه أو عرّض]

الذمّي إذا صرّح بسبِّه أو عرّض، أو استخفّ بقدره، أو وصفه بغير الوجه الذي كفر به فمذهب المالكية قتله إن لم يُسْلم؛ لأنا لم نُعْطِه الذمة أو العهد على هذا؛ وهو قولُ عامة الفقهاء، إلا أبا حنيفة والثوريّ وأتباعَهما من أهل الكوفة، فإنهم قالوا: (لا يُقْتَل؛ ما هو عليه من الشرك أعظم، ولكن يُؤدَّب ويعزَّرُ).

واستدلّ بعض شيوخِنا على قتله بقوله تعالى: ((وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ)) [التوبة:12].

ويُستدل عليه أيضًا بقتْل النبيِّ صلى الله عليه وسلم لابن الأشرفِ وأشباهِه؛ ولأنّا لم نعاهِدْهم، ولم نُعطِهم الذِّمَّة على هذا؛ ولا يجوز لنا أن نفعل ذلك معهم؛ فإذا أتوا ما لم يُعْطوا عليه العهد ولا الذمة فقد نقضُوا ذمتهم، وصاروا كفارًا يُقتلُون لكُفرهم.

وأيضًا فإنَّ ذِمَّتَهُم لا تُسقِطُ حدودَ الإسلام عنهم؛ من القطعِ في سرقةِ أموالهم، والقتلِ لمن قتلوه منهم، وإنْ كان ذلك حلالًا عندهم، فكذلك سبُّهُم للنبي صلى الله عليه وسلم يُقْتَلُون به.

فصل: [في ميراث من قتل بسب النبي، وغسله، والصلاة عليه]

اختلف العلماءُ في ميراثِ من قُتِل بِسببِّ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم؛ فذهب سُحْنون إلى أنه لجماعةِ المسلمين مِنْ قِبَلِ أنّ شتْمَ النبي صلى الله عليه وسلم كُفرٌ يُشبِه كُفر الزَّندقة.

وقال أصبغ: (ميراثُه لورثته من المسلمين إن كان مستسرًا بذلك، وإن كان مُظهرًا له مُستهلًا به فميراثُه للمسلمين،

ويُقتل على كل حالٍ ولا يُستتابُ).

وقال أبو الحسن القابسيّ: (إنْ قُتِل وهو مُنكرٌ للشهادة عليه فالحكم في ميراثه على ما أظهَره من إقراره- يعني لورثته- والقتلُ حدٌّ ثبت عليه ليس من الميراث في شيء، وكذلك لو أقرَّ بالسبِّ وأظهر التوبة لقُتِل؛ إذ هو حَدُّه، وحكمُه في ميراثه، وسائر أحكامه حُكمُ الإسلام.

ولو أقرّ بالسبِّ، وتمادى عليه، وأبى التوبةَ منه، فقُتِل على ذلك كان كافرًا، وميراثه للمسلمين؛ ولا يغسّلُ ولا يصلَّى عليه، ولا يكفَّن، وتُستَرُ عورتُه، ويُوارى كما يُفعَل بالكفّار).

وقال بقول مالك: (إنَّ ميراثَ المرتدّ للمسلمين، ولا ترِثه وَرَثته) ربيعةُ، والشافعي، وأبو ثوْر، وابن أبي ليلى؛ واختُلِفَ فيه عن أحمد.

وقال عليّ بن أبي طالب رضي اللهُ عنه، وابنُ مسعود، وابن المسيَّب، والحسنُ، والشعبيّ، وعُمر بن عبد العزيز، والحكَم، والأوزاعيّ، والليثُ، وإسحاق، وأبو حنيفة: (ترثُه ورثتُه من المسلمين).

الباب الثالث

في حُكْم من سبَّ الله تعالى وملائكته وكتبه وأنبياءه

وآل النبي صلى الله عليه وسلم وأزواجَه وصحبه

لا خلافَ أن سابَّ الله تعالى من المسلمين كافرٌ حلالُ الدم. واختُلِفَ في استتابته: فقال مالك: (مَنْ سبّ الله تعالى من المسلمين قُتِل ولم يُسْتَتب).

وقال المخزومي، ومحمد بن مسلمة، وابن أبي حازم: (لا يُقْتَل المسلمُ بالسبِّ حتى يُستتاب.

وكذلك اليهوديُّ والنَّصْرانيّ، فإن تابوا قُبل منهم، وإن لم يتوبوا قُتِلوا ولا بُدّ من الاستِتَابة).

وأفتى أبو محمد بن أبي زيد فيما حُكي عنه في رجل لعن رجُلًا ولَعَنَ اللهَ، فقال: "إنما أرَدْتُ أن ألعن الشيطانَ فزلَّ لساني"؛ فقال: (يُقْتَلُ بظاهر كُفْرِه، ولا يُقبلُ عُذْره، وأمّا فيما بيْنَه وبين الله تعالى فمعذور).

فصل: [في حكم الساب لله إذا كان ذميًا]

قال مالك: (من شَتَم الله من اليهود والنصارى بغير الوجه الذي به كفروا قُتِلَ، ولم يُسْتَتَب).

قال ابن القاسم: (إلا أنْ يُسْلِم). قال في المبسوطة: (طوعًا).

قال أصبغ: (لأنّ الوجه الذي به كفرُوا هو دِينُهم، وعليه عُوهِدُوا، مِنْ دعوى الصاحبة والشّرِيك والولد. وأما غير هذا من الفِرْية والشّتْم فلم يُعاهدوا عليه، فهو نقضٌ للعهد).

فصل: [في مفتري الكذب على الله تبارك وتعالى بادعاء الإلهية]

مُفْتَرِي الكذب عليه تبارك وتعالى بادعاء الإلهية أو الرسالة أو النافي أن يكون اللهُ خالقَه أو ربَّه؛ أو قال: "ليس رَبٌّ" لا خلاف في كُفْرِ قائل ذلك ومُدّعِيه مع سلامة عَقْله كما قدمنا، لكنه تُقْبَل توبتُه على المشهور، وتنفعه إنابتُه، وتُنَجّيه من القتل فيئَتُه، لكنه لا يسْلم من عَظِيم النَّكال، ولا يرفَّه عن شديد العقاب؛ ليكون ذلك زجرًا لمثله عن قوْلِه؛ وله عن العودة لكُفْره أو جهله، إلاّ من تكرّر منه ذلك، وعُرِف استهانتُه بما أتى به؛ فهو دليل على سُوءِ طويته، وكذب توبته، وصار كالزنديق الذي لا نأمَنُ باطنه، ولا نقبل رُجوعه.

وأما المجنون والمعتوه فما عُلِم أنه قاله مِن ذلك في حال غمرته وذهاب مَيزه بالكلية فلا نظر فيه، وما فعله من ذلك في حال ميزه وإن لم يكُنْ معه عقلُه وسقط تكليفُه أُدِّبَ على ذلك لينزجِرَ عنه، كما يؤَدّبُ على قبائح الأفعال، ويُوَالَى أدبُه على ذلك حتى يُكَفّ عنه، كما تؤدّبُ البهيمة على سوء الخُلق حتى تُراض.

وقد حرَّق علي بن أَبي طالب رضي الله عنه من ادَّعَى له الإلهية، وقد قتل عبدالملك بن مروان الحارثَ المتنبِّي وصلبه، وفعل ذلك غيرُ واحد من الخلفاء والملوك بأشباههم.

وأجمع فقهاءُ بَغْداد أيام المقتدر من المالكية وقاضي قُضَاتها أبو عمَر المالكي على قتل الحلاّج وصَلْبِه؛ لَدَعْواهُ الإلهية، والقول بالحلول؛ وقولِه: "أنا الحقُّ"، مع تمسُّكِه في الظاهر بالشريعة، ولم يقبلوا توبته.

وقال ابن عبد الحكم في المبسوط: (من تنبأ قُتِل).

فصل: [فيمن تكلم بسقط القول وسخف اللفظ، ممن لم يضبط كلامه]

وأما من تكلّم من سقَطِ القول وسُخْف اللفظ ممّن لم يَضْبِط كلامه وأهمل لسانه بما يقتضي الاستخفافَ بعظمة ربِّه وجلالةِ مولاه؛ أو تمثَّل في بعض الأشياء ببعض ما عظّم اللهُ من ملكُوته، أو نَزَع من الكلام لمخلوق بما لا يليقُ إلا في حق خالقه غَيْرَ قاصدٍ للكفر والاستخفاف، ولا عامدٍ للإلحاد، فإن تكرَّر هذا منه، وعُرف به، دلّ على تلاعُبِه بدِينه، واستِخْفَافِه بحُرمة ربِّه، وجَهْله بعظيم عِزّته وكِبْريائه، وهذا كفرٌ بلا مِرْيَة، وكذلك إن كان ما أورده يوجب الاستخفاف والتنقُّص لربِّه.

وأما من صدرت عنه من ذلك الهنة الواحدة والفلتة الشاردة، ما لم تكن تنقُّصًا وإزراءً؛ فيُعاقبُ عليها ويُؤَدَّب بِقَدْر مقتضاها وشُنْعَة معناها، وصورةِ حال قائلها، وشرح سببها ومُقارِنها.

وقد أسرف كثير من سُخفاء الشعراء ومُتَّهميهم في هذا الباب، واستخفّوا عظيم هذه الحرمة، فأتوا من ذلك بما نُنزِّه كتابنا ولساننا وأقلامنا عن ذكره.

وقد روينا عن عون بن عبد الله أنه قال: (ليُعَظِّم أحدُكم ربّه، أن يذكر اسمَه في كل شيء حتى يقول: أخزى اللهُ الكلب، وفعل به كذا وكذا).

وحدثنا الثقة أن الإمام أبا بكر الشاشي كان يَعِيبُ على أَهل الكلام كثرةَ خوضهم فيه تعالى، وفي ذكر صفاته، إجلالًا لاسمه تعالى، ويقول: (هؤلاء يَتَمَنْدَلون بالله عزّ وجلّ).

وينزل الكلام في هذا الباب تنزيلَه في باب سابِّ النبي صلى الله عليه وسلم على الوجوه التي فَصّلْناها، والله الموفقُ.

فصل: [في حكم من سب سائر أنبياء الله تعالى وملائكته واستخف بهم أو كذبهم]

وحكم من سب سائِرَ أنبياء الله تعالى وملائكته، واستخف بهم أو كذّبهم فيما أتوْا به، أو أنكرهم وجَحَدهم، حُكْمُ نبيّنا صلى الله عليه وسلم على مَسَاقِ ما قدمناه؛ قال الله تعالى: ((إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا * أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا)) [النساء:150-151].

وقال تعالى: ((قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)) [البقرة:136].

وقال: ((كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نفرق بين أحد من رسله)) [البقرة:285] قال مالك فيمن شتم الأنبياء أو أحدًا منهم أو تنقصه: (قتل ولم يُستتب، ومن سبهم من أهل الذمة قتل إلا أن يُسْلم).

ورَوَى سُحْنُون عن ابن القاسم: (من سبّ الأنبياء من اليهود والنصارى بغير الوجه الذي به كفر ضُرب عُنقه إلا أن يسلم).

وقال سحنون: (من شتم مَلَكًا من الملائكة فعليه القَتْل).

وعن مالك فيمن قال: "إن جبريل أخطأ بالوحي؛ وإنما كان النبيُّ عليَّ بن أبي طالب": (استُتِيبَ، فإن تاب وإلا قُتل).

وقال أبو حنيفة وأصحابُه على أصلِهم: (من كذّب بأحد من الأنبياء، أو تنقَّص أحدًا منهم، أو برئ منه فهو مُرْتَدٌ).

وقال أبو الحسن القابِسيّ في الذي قال لآخر: "كأنه وَجْه مالك الغَضْبَان": (لو عُرِف أنه قصد ذَمّ المَلَكِ قُتِل).

فصل: [في حكم من استخف بالقرآن أو المصحف أو بشيء منه أو سبهما]

اعلم أن من استخفّ بالقرآن أو المصحف أو بشيء منه، أو سبَّهُما، أو جَحَدهُ، أو حرفًا منه أو آية، أو كذّب به أو بشيءٍ منه، أو كذّب بشيء ممَّا صُرِّحَ به فيه مِنْ حُكْمٍ أو خبر؛ أو أثبت ما نفاهُ أو نَفَى ما أثْبَتَه على علم منه بذلك، أو شكَّ في شيءٍ من ذلك فهو كافرٌ عند أهل العلم بإجماع، قال اللهُ تعالى: ((لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ)) [فصلت:42].

وعن أبي هُريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: {المراء في القرآن كفر}[1]؛ تؤُوِّلَ بمعنى: الشكّ، وبمعنى: الجدال.

وقد أجمع المسلمون أن القرآن المتلُوَّ في جميع أقطارِ الأرض المكتوبَ في المصحف بأيدي المسلمين، مما جمعه الدفتان من أول ((الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)) إلى آخر: ((قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ)) أنه كلامُ الله ووحيُه المنزَّلُ، على نبيّه محمد صلى الله عليه وسلم؛ وأن جميع ما فيه حقٌّ، وأنّ من نقص منه حرفًا قاصدًا لذلك، أو بدَّله بحرفٍ آخر مكانه، أو زاد فيه حرفًا مما لم يشتمل عليه المُصْحَفُ الذي وقع الإجماعُ عليه، وأجمع على أنه ليس من القرآن عامدًا لكل هذا؛ أنه كافر.

ولهذا رأى مالك قتل من سبَّ عائشة رضي الله عنها بالفِرْيَة؛ لأنه خالف القرآن؛ ومن خالف القرآن قُتِل؛ لأنه كذَّب بما فيه.

قال أَصبغ بن الفَرَج: (منْ كذّب ببعض القرآن فقد كذّب به كلّه، ومن كذّب به فقد كفر به، ومَنْ كفَر به فقد كفر بالله).

فصل: [في حكم ساب آل بيت النبي وأصحابه]

سب آل بيتِه وأزواجِهِ وأصحابه صلى الله عليه وسلم وتنقُّصُهم حَرَام ملعونٌ فاعله.

---

(1) سنن أبي داود (4603).

عن عبد الله بن مُغَفّل قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: {اللهَ، الله في أصحابي، لا تتَّخِذُوهم غَرَضًا بعدي، فمَنْ أحبَّهم فبِحُبِّي أحبَّهم، ومن أبغضهم فبِبُغْضِي أبغَضَهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله يوشِكُ أن يأخذه}[1].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {لا تسبُّوا أصحابي، فمن سبّهم فعليه لعنةُ الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبلُ اللهُ منه صرفًا ولا عدلًا}.

وقد اختلف العلماءُ في حكم هذا، فمشهورُ مذهب مالك في ذلك الاجتهاد والأدبُ الموجع، قال مالك رحمه الله: (من شتم النبي صلى الله عليه وسلم قُتل؛ ومن شتم أصحابه أُدِّب).

وقال أيضًا: (من شَتَم أحدًا من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم: أبا بكر، أو عمر، أو عثمان، أو معاوية، أو عمرو بن العاص، فإن قال: كانوا على ضَلالٍ وكُفْرٍ قُتِل؛ وإن شتَمهم بغير هذا من مُشاتَمَةِ الناس نُكّل نكالًا شديدًا).

وقال ابن حبيب: (من غَلا من الشيعة إلى بُغضِ عثمان والبراءة منه أُدِّب أدَبًا شديدًا، ومن زاد إلى بُغْض أبي بكر وعمر فالعقوبة عليه أشدُّ، ويكرَّر ضرْبُه، ويُطالُ سِجنه حتى يموت، ولا يُبْلغ به القتلُ إلا في سب النبي صلى الله عليه وسلم).

وقال سُحنون: (من كفَّر أحدًا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: عليًّا، أو عثمان، أو غيرهما يُوجَعُ ضربًا).

قال مالك: (من انتقص أحدًا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فليس له في هذ الفَيْء حقٌّ، قد قسم الله الفيْءَ في ثلاثة أصناف، فقال: ((لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ)) [الحشر:8]، ثم قال: ((وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ)) [الحشر:9] وهؤلاء هم الأنصارُ، ثم قال: ((وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)) [الحشر:10]، فمن تنقّصَهُم فلا حقَّ له في فيء المسلمين).

قال القاضي أبو الفضل: هنا انتهى القول بنا فيما حررناه ، وانتجز الغرض الذي انتحيناه[2]، واستُوْفَى الشّرطُ الذي شرطناه، مما أرجو أنْ يكون في كل قسم منه لِلمُريد مَقْنَع، وفي كل باب منهجٌ إلى بُغيَته ومَنْزع.

ونحمده تعالى على ما هَدَى إليه من جَمْعِه وألْهَم، وفتح البصيرةَ لِدَرْك حقائق ما أودعناهُ وفهم.

ونستعيذه جل اسمه من دعاءٍ لا يُسْمَع، وعِلْم لا ينفَع، وعمل لا يُرْفَع؛ فهو الجَوادُ الذي لا يخيبُ مَن أَمَّلَه، ولا ينتصر من خذله، وهو حسْبنا ونعم الوكيل؛ وصلاتُه على سيدنا ونبينا محمدٍ خاتم النبيّين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وسلم تسليمًا كثيرًا.

---

(1) سنن الترمذي (3862).

(2) انتحيناه: اعتمدناه.

الفهرس العام

مقدمة التحقيق..... 1
مقدمة الكتاب 4
القِسْم الأوّل في تعظيم العليّ الأعلى لقَدْر هذا النبيّ قولًا وفعلًا 5
الباب الأول في ثناء الله تعالى عليه، وإظهاره عظيم قَدْرِه لديه 5
الفَصْل الأوّل: فيما جاء من ذلك مَجيءَ المَدح والثناء وتَعداد المحاسن:..... 5
الفَصل الثّانِي: في وصْفِه تعالى له بالشهادةِ وما يتعلق بها من الثناء والكرامة:..... 6
الفصل الثالث: فيما ورد من خطابه إياه مورد الملاطفة والمبرّة: 8
الفصل الرابع: في قسمه تعالى بعظيم قدرِه: 8
الفصل الخامس: في قسمه تعالى له ليحقق مكانته عنده: 9
الفصل السادس: فيما ورد من قوله تعالى في جهته عليه السلام موردَ الشفقة والإكرام:..... 10
الفصل السابع: فيما أخبر الله تعالى به في كتابه العزيز من عظيم قدْره، وشريف منزلته على الأنبياء، وحظوة رتبته: 11
الفصل الثامن: في إعلام الله تعالى خلقه بصلواته عليه، وولايته له، ورفعه العذاب بسببه:..... 11
الفصل التاسع: فيما تضمنته سورة الفتح من كراماته صلى الله عليه وسلم: 12
الفصل العاشر: فيما أظهره الله تعالى في كتابه العزيز من كرامته عليه ومكانته عنده: 13
الباب الثاني في تكميل الله تعالى له المحاسن خَلْقًا وخُلُقًا، وقِرَانه جميع الفضائل الدينية والدنيوية فيه نَسقًا..... 14
فصـــل: [محمد صلى الله عليه وسلم جمع خصال الكمال ونعوت الجلال]..... 14
فصـــل: [أوصاف رسول الله صلى الله عليه وسلم الخَلْقية]..... 15
فصـــل: [نظافة جسمه صلى الله عليه وسلم وطيب رائحته]..... 16
فصـــل [ذكاء النبي صلى الله عليه وسلم وقوة حواسه]..... 17
فصـــل: [شرف نسب النبي صلى الله عليه وسلم وكرم بلده ومنشئه]..... 18
فصـــل: [هديه فيما يمتدح بقلته كالطعام والنوم]..... 18
فصـــل: [هديه فيما يمتدح بكثرته كالنكاح والجاه] 19
فصـــل: [هديه فيما تختلف الحالات في التمدح به ككثرة المال] 20
فصـــل: [أخلاق النبي عليه الصلاة والسلام]..... 21
فصـــل: [في حلمه وعفوه وصبره صلى الله عليه وسلم] 22
فصـــل: [في ذكر جوده وكرمه وسماحته] 23
فصـــل: [في ذكر شجاعته صلى الله عليه وسلم]..... 24
فصـــل: [في ذكر حيائه صلى الله عليه وسلم]..... 25

فصـل: [في ذكر حسن عشرته وبسط خلقه صلى الله عليه وسلم مع أصناف الخلق] 26
فصـل: [في شفقته ورحمته صلى الله عليه وسلم بأمته] 27
فصـل: [في حسن عهده وصلته للرحم] 29
فصـل: [في تواضعه على علو منصبه ورفعة رتبه] 30
فصـل: [في عدله وأمانته وصدق لهجته] 31
فصـل: [في وقاره وصمته ومروءته] 32
فصـل: [في ذكر زهده في الدنيا] 32
فصـل: [في ذكر خوفه من ربه وشدة عبادته له] 33
البابُ الثالث: فيما ورد من صحيح الأخبار ومشهورها بعظيم قدره عند ربه ومنزلته، وما خصه به في الدارين من كرامته صلى الله عليه وسلم 35
الفصل الأول: فيما ورد من ذكر مكانته عند ربه، والاصطفاء، ورفعة الذكر، والتفضيل وسيادة ولد آدم، وما خصه به في الدنيا من مزايا الرتب وبركة اسمه الطيب: 35
الفصل الثاني: في تفضيله بما تضمنته كرامة الإسراء من المناجاة والرؤية، وإمامة الأنبياء والعُروج به إلى سِدْرة المنتهى، وما رأى من آيات ربه الكبرى: 36
فصـل: [في ذكر تفضيله في القيامة بخصوص الكرامة] 38
فصـل: [في تفضيله بالمحبة والخُلة] 39
فصـل: [في تفضيله بالشفاعة والمقام المحمود] 39
فصـل: [في تفضيله في الجنة بالوسيلة والدرجة الرفيعة والكوثر والفضيلة] 41
البابُ الرّابع: فيما أظهره الله تعالى على يديه من المعجزات وشرّفه به من الخصائص والكرامات 42
فصـل: [في انشقاق القمر] 42
فصـل: [في نبع الماء من بين أصابعه وتكثيره ببركته] 43
فصـل: [في ذكر معجزته في غزوة تبوك] 44
فصـل: [تكثير الطعام ببركته صلى الله عليه وسلم] 44
فصـل: [في كلام الشجرة وشهادتها له بالنبوة وإجابتها دعوته] 45
فصـل: [في قصة حَنين الجذع] 45
فصـل: [سماعه التسبيح وتسليم بعض الجمادات] 46
فصـل: [في إبراء المرضى وذوي العاهات] 46
فصـل: [في إجابة دعائه صلى الله عليه وسلم] 46
فصـل: [في كراماته وبركاته] 47
فصـل: [فيما أُطلع عليه من الغيوب وما يكون] 48

فصـل: [في عصمة الله تعالى له من الناس وكفايته من آذاه] 53
فصـل: [في ذكره في كتب الأولين] 54
القسم الثاني فيما يجب على الأنام من حقوقه صلى الله عليه وسلم 56
الباب الأول في فرض الإيمان به ووجوب طاعته واتباع سنته 56
فصل: [في وجوب طاعته] 56
فصل: [في وجوب اتباعه، وامتثال أمره، والاقتداء بهديه] 57
فصل: [فيما ورد عن السلف والأئمة من اتباع سنته والاقتداء بهديه وسيرته] 58
فصل: [في أن مخالفة أمره وتبديل سنته ضلال] 59
الباب الثاني في لزوم محبته صلى الله عليه وسلم 61
فصل: [في ثواب محبّته صلى الله عليه وسلم] 61
فصل: [فيما روي عن السلف والأئمة من محبتهم للنبي صلى الله عليه وسلم وشَوْقهم له] 62
فصل: [في علامة محبَّته صلى الله عليه وسلم] 62
فصل: [في معنى المحبة للنبي صلى الله عليه وسلم وحقيقتها] 64
فصل: [في وجوب مناصحته صلى الله عليه وسلم] 65
الباب الثالث في تعظيم أمره ووجوب توقيره وبِرّه 67
فصل: [في عادة الصحابة في تعظيمه صلى الله عليه وسلم وتوقيره وإجلاله] 68
فصل: [في تعظيم النبي بعد موته] 68
فصل: [في سيرة السلف في تعظيم رواية حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه] 69
فصل: [في توقيره، وبر آله، وذريته، وأمهات المؤمنين أزواجه] 70
فصل: [من توقيره وبره توقير أصحابه وبِرّهم] 72
الباب الرابع في حكم الصلاة عليه والتسليم وفرض ذلك وفضيلته 74
فصل: [حكم الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم] 74
فصل: [في المواطن التي يُستحبُّ فيها الصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم] 75
فصل: [في كيفية الصلاة عليه والتسليم] 76
فصل: [في فضيلة الصلاة على النبي والتسليم عليه والدعاء له] 77
فصل: [في ذمِّ من لم يصل على النبي وإثْمه] 77
فصل: [في تخصيصه صلى الله عليه وسلم بتبليغ صلاة من صلى عليه وسلم من الأنام] 78
فصل: [في الاختلاف في الصلاة على غير النبي صلى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء عليهم السلام] 78
فصل: [فيما يلزم مَن دخل مسجد النبي صلى الله عليه وسلم من الأدب] 79
القسم الرابع في تصرف وجوه الأحكام فيمن تنقّصه أو سبّه عليه الصلاة والسلام 81

الباب الأول في بيان ما هو في حقه صلى الله عليه وسلم سَبٌّ، أو نَقْص من تعريض أو نصّ 83
فصل: [في الحجة في إيجاب قتل من سبَّه أو عابه صلى الله عليه وسلم]..... 84
فصل: [الوجه الثاني: إذا كان غير قاصد]..... 86
فصل: [الوجه الثالث: أن يقصد إلى تكذيبه فيما قاله وأتى به]..... 87
فصل: [أن يأتي من الكلام بمجمل ويلفظ من القول بمشكل يمكن حمله على النبي أو غيره]..... 87
فصل: [الوجه الخامس: ألا يقصد نقصًا]..... 88
فصل: [الوجه السادس: أن يقول ذلك حاكيًا عن غيره] 89
فصل: [الوجه السابع: أن يذكر ما يجوز على النبي، أو يختلف في جوازه] 90
فصل: [الالتزام عند ذكر النبي بالواجب من توقيره وتعظيمه] 92
الباب الثاني في حكم سابِّه وشانئه ومتنقّصه ومُؤْذيه وعُقوبتِه 93
فصل: [حكم الذمي إذا صرح بسبه أو عرّض] 93
فصل: [في ميراث من قتل بسب النبي، وغسله، والصلاة عليه] 93
الباب الثالث في حُكْم من سبَّ الله تعالى وملائكته وكتبه وأنبياءه وآل النبي صلى الله عليه وسلم وأزواجَه وصحبه ... 95
فصل: [في حكم الساب لله إذا كان ذميًا] 95
فصل: [في مفتري الكذب على الله تبارك وتعالى بادعاء الإلهية] 95
فصل: [فيمن تكلم بسقط القول وسخف اللفظ، ممن لم يضبط كلامه]..... 96
فصل: [في حكم من سب سائر أنبياء الله تعالى وملائكته واستخف بهم أو كذبهم]..... 96
فصل: [في حكم من استخف بالقرآن أو المصحف أو بشيء منه أو سبهما]..... 97
فصل: [في حكم ساب آل بيت النبي وأصحابه] 97